

صالون غازي الثقافي العربي

سلسلة المبدعين العرب

الكتاب السابع

رائد التنوير

زكي نجيب محمود



ذكرياتي الفلسفية والأدبية مع المفكر والإنسان

د. عاطف العراقي

منتہی سورا الازربکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET

صالون غازى الثقافى العربى

سلسلة المبدعين العرب

الكتاب السابع

رائد التنوير زكى نجيب محمود

ذكرياتى الفلسفية والأدبية مع المفكر والإنسان

د. عاطف العراقى

-
-
- رائد التنوير زكى نجيب محمود
 - ذكرياتى الفلسفية والأدبية مع المفكر والإنسان
 - أ.د. عاطف العراقي
 - الطبعة الأولى
 - ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م
 - رقم الإيداع ٢٦٣/١٠٠٧/٢٠٠٧
 - الغلاف للمصمم معتز الرفاعى
 - حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لصاحب الصالون
 - دار الهاتى للطباعة والنشر - القاهرة
- ت ٢٠٥٥٤٤٤٤

الإهداء

إلى روح المفكر والعالم والإنسان

إلى النفس الشفافة المضيئة التي حاربت الظلام والخرافة بنور

العقل والتنوير.....إلى أستاذي ومفكري ورائدي زكي نجيب

محمود. إنه الكل في واحد، وإن كان أشباه المثقفين لا

يعلمون.

إليه أهدى هذا الكتاب، وأقول مخاطباً روحه في السماء

أذكريني ، فقد انتشر الظلم والشقاء بين بني الإنسان

عاطف العراقي

٢٠٠٧/٥/١٥م

شكر وتقدير

يتوجه المؤلف بأعمق آيات الشكر والتقدير لجميع المؤسسات العلمية والثقافية التي اهتمت بفكر الأستاذ والمفكر والرائد زكى نجيب محمود فى حياته وبعد وفاته، وسواء كانت مؤسسات داخل مصر أم غيرها من بلدان العالم العربى والعالم الأوربى. لقد قدمت لى كل عون أثناء تأليف هذا الكتاب كما يتوجه المؤلف بالشكر الجزيل إلى زوجة المفكر الكبير الأستاذة الدكتورة منيرة حلمى.

على سبيل التقديم

د. غازى زين عوض الله

لقد حققت سلسلة المبدعين العرب - وهى إحدى سلاسل إصدارات الصالون المتنوعة- نجاحاً كبيراً، ولاقت صدى واسعاً بين أوساط المثقفين العرب، وذلك لأهمية هؤلاء المبدعين وتفردهم ودورهم الرائد فى حياتنا الفكرية المعاصرة وغازرة إنتاجهم من جهة ولتنوع تلك السلسلة وإحاطتها بعدد كبير من هؤلاء المبدعين من جهة ثانية، ولعمق التناول وجدية الدراسات وشمولية الاستقصاء والقدرة على قراءة أعمال أولئك المبدعين من قبل صفوة العلماء الذين تصدوا للتأليف وكتابة صفحات تلك السلسلة من جهة ثالثة.

وذلك ليس غريباً على منهج الصالون حيث إن الأصل فى تكريم المبدعين هو تكريم علمى منهجى فى المقام الأول، ولذلك نحشد عدداً من صفوة الأقلام لتناول أعمال هؤلاء المكرمين تناولاً علمياً، وتصدر بذلك كتب الصالون.. لكن هذه السلسلة تتفرد عن سلسلة كتب الصالون بأنها تتناول أعمال شخصية واحدة فقط فى كتاب مستقل.

ويحمل هذا الكتاب الذى بين أيدينا رقم سبعة من تلك السلسلة الفريدة، وهو عن فيلسوف العروبة الراحل زكى نجيب محمود (١٩٠٥-

١٩٩٣) والذي يشرفنا أيضاً أن نكرم اسمه في احتفالية الصالون السادسة عشرة إن شاء الله تعالى.

وإذا كنا نحتفي بمفكرنا الكبير فإننا نحتفي بقيمة عطائه وثورته وفكره وعظمة مشواره وغازارة إنتاجه وتنوع اهتماماته، وحاجتنا الملحة الآن إلى فكره حيث كان ينادى بالأخذ بثقافة العصر بكل ما فيها من دعوة إلى الحرية والعقل، الحرية في العيش عيشة كريمة، والتعبير دون خوف من عوائق التفكير، ثم العقل بوصفه أساس الحضارة، ولا بد أن يصبغ الحياة كلها بصبغته الموضوعية الحيادية.. كما تصدى لمشكلة الأصالة والمعاصرة وأن المدار في كليهما هو العمل والتطبيق وما يعاش به.. ودعا إلى قيام فلسفة عربية مقترحة تقوم أولاً على ثنائية السماء والأرض، ونادى بأن نتحول من حضارة اللفظ إلى حضارة الأداء، إلى آخر تلك الآراء التي نادى بها والتي لو أخذنا بها لكان الحال غير الحال!. ويسعدنا أن يكون مؤلف هذا الكتاب هو الصديق الكبير الدكتور عاطف العراقي حكيم العرب والتلميذ النجيب للرائد الراحل.. فهو الأقدر على إضاءة دور أستاذه وتقديم تجربته والإحاطة بمسيرته الحافلة، وسرد ذكرياته المتعددة معه، فله الشكر مقدماً وكثيراً، ونتمنى للقارئ العزيز أن يجد في تلك الأوراق ما يمتع عقله ويسمو بوجدانه...

د. غازي زين عوض الله

تصدير عام

غير مجدٍ في يقيني واعتقادي إهمال الدور الرائد والحيوى الذى قام به زكى نجيب محمود. إن الدور الذى قام به طوال حياته لا يمكننا إهماله، إذ إن دوره فى مجال الفكر العربى لا يقل عن الدور الذى قام به أعظم المفكرين فى حياتنا الحاضرة.

لقد احتل زكى نجيب محمود مكانة كبيرة فى تاريخ الفكر العربى المعاصر. كان مفكراً من طراز ممتاز، ترك لنا العديد من البصمات القوية البارزة فى مجال الفكر العربى بفروعه المختلفة واتجاهاته المتعددة. بل إننا نراه مهتماً بمجالات فكرية أخرى لا تقل عن اهتماماته بالفكر العربى الحديث.. ومن بينها " التجريبية العلمية " أو " الوضعية المنطقية "؛ والفنون والآداب إلى آخر تلك المجالات.

فلا بد أن نضع فى الاعتبار أنه من أوجب الواجبات علينا أن ندرس فكره، ونستمع جيداً إلى الحكم الخالدة التى تركها لنا؛ ففكر زكى نجيب لم يكن معبراً عن الانقطاع والإهمال فى زوايا النسيان، بل كان

معبراً عن التواصل... إن فكره يعد معبراً عن القيم الخلاقة وعن كل ما هو رفيع. إنه مفكر عربي، ولكنه كان مستفيداً من الروح الغربية.

لقد تسلح زكي نجيب بالثقافة الموسوعية الشاملة، وقبل دراسته للدكتوراه، وجمع بين الأدب والفلسفة برباط وثيق، فكان مفكراً بروح أدبية، وكان أديباً من خلال روح فلسفية، وأضاف إلى اهتماماته العلمية والفكرية بعداً فلسفياً وأديبياً.. فتح أمامنا زكي نجيب محمود كثيراً من الأبواب المغلقة والتي كانت موصدة تماماً قبل أن يكشف عنها النقاب مفكرنا الشامخ العملاق، وكان مدافعاً باستمرار عن العلم والاتجاه العلمي، عن الأخلاق والفضائل الخلقية، عن الإنجازات والتطبيقات التكنولوجية، إن هذا يتضح لنا تماماً إذا قرأنا بدقة ما كتبه في قصة نفس، وقصة عقل، وحصاد السنين.. إن زكي نجيب محمود يبدو شامخاً كالهرم، وإذا كان كل إنجليزي لا يجهل شكسبير، وكل فرنسي يعرف تماماً فولتير، فيجب علينا كعرب أن نعرف كل منا زكي نجيب محمود، إنه البوصلة الكاشفة والضياء المستديم والشعلة الفكرية الخالدة.. نقول هذا ونحن نضع في

الاعتبار أننا كعرب قد أصبحنا فى حالة صعود إلى الهاوية وأصبح الفكر عندنا وكأنه من الأشياء الكمالية غير الضرورية، فيجب علينا إذن أن ندرس كل كلمة كتبها زكى نجيب محمود، وكل دعوة دعانا إليها، وهل يمكن أن نقلل من كتب خالدة قامت حولها المعارك الفكرية؟!.. ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر، المنطق الوضعى، وخرافة الميتافيزيقا، ونحو فلسفة علمية، وشروق من الغرب، وجنة العبيط، إن هذا يعد فرض عين إذا أرادت أمتنا العربية لنفسها طريق التقدم.

لكن ماذا نفعل إزاء أناس عبروا عن أفكارهم من خلال مناصبهم تارة وكثرة ضجيجهم تارة أخرى، ويقينى أن زكى نجيب محمود لو كان قد عاش حياته فى البلدان الأوربية لكان الحال غير الحال، ولكن ماذا نفعل أمام أناس يريدون الارتقاء فى أحضان فوائد البترول؟ ماذا نفعل لأناس تكونت ثقافتهم المزيفة من كل ما هو متصل بالخرافة والأساطير؟! لقد درس زكى نجيب محمود كثيراً من القضايا، وخاض المعارك الأدبية والفكرية من أجل رفعة العلم وتطبيقاته التكنولوجية ومن

أجل الدفاع عن النور والتنوير، والنظر في سخط إلى الظلام وثقافة
الظلام، وخرافة الظلام وهل يمكن أن ننسى معاركه حول الأفهام الخاطئة
بالنسبة للغزو الثقافي والهجوم على الحضارة الحديثة، والخلط بين
الجوانب العلمية والجوانب الإنسانية؟ كلا... ثم كلا... لقد شق زكى
نجيب محمود طريقه وسط الأشواك والصخور، وتسليح بروح نقدية من
النادر أن نجدها في تاريخ العرب المعاصر، فإذا كان زكى نجيب محمود
قد تحققت له الشهرة، فإنها كانت نتيجة منطقية لكفاحه الفكرى ولم تكن
من منطلقات سياسية، إذ لا بد أن نضع في الاعتبار أن جزءا من شهرة
طه حسين قد تحققت لأسباب سياسية، وما يقال عن طه حسين يقال أيضاً
عن عباس العقاد، لم تكن شهرة زكى نجيب محمود آتية من منصب
إدارى أو سياسى فالكل يعلم تماماً أن زكى نجيب محمود لم يتول فى
حياته منصباً سياسياً أو منصباً إدارياً، ونحن نعلم تماماً أنه يوجد تناقض
حاد بين المكانة العلمية والمنصب الإدارى، ولعل هذا ما أدى بزكى نجيب
محمود إلى أن يتحدث عن " عملة الأقرام " فالكل كان يسعى إليه لكى

يستفيد من إشاعات فكره الخصب وثقافته الغزيرة وليس من منطلق المنصب الإدارى الذى لم يحرص عليه إطلاقاً زكى نجيب محمود طوال حياته وحتى أظلمت الدنيا فى التاسع من سبتمبر عام ١٩٩٣ حين تم الإعلان عن وفاة الهرم الشامخ والمدافع عن التنوير فى العصر الحديث زكى نجيب محمود.

كان زكى نجيب محمود قمة فى التواضع، فرغم علمه الغزير ووقوفه على هرم الثقافة العربية فى عصره إلا أنه لم يزعم لنفسه أنه يعد فيلسوفا فى الوقت الذى كنا ومازلنا نسمع عن الصغار والأقزام ومتخلفى العقول والعياذ بالله، إنهم يعدون أنفسهم فلاسفة حين يكتبون... إنهم يتحدثون عن مشروعات لهم وهى مشروعات لا تتصل بالفكر من قريب أو بعيد، مشروعات وهمية زائفة خادعة.

نعم... لم يزعم زكى نجيب محمود لنفسه أنه يعد فيلسوفا بل إنه يتحدث بإكبار وإجلال واحترام عن أساتذته وزملائه... أذكر أنه كان يتحدث أثناء لقائى به فى منزله عن عديد من الشخصيات ويركز على أن

يبين لى أثرهم فى تشكيل عقول ووجدان الأمة العربية، من أمثال رفاة الطهطاوى وأحمد أمين، وطه حسين، والعقاد، وصديقه الصدوق توفيق الحكيم... فهل يعلم ما قاله هؤلاء الأشباه الذين أصيبوا بتضخم الأنا، والذين يكتبون فى كل شئ دون فهم من جانبهم لأى شئ.

لقد خاض زكى نجيب محمود العديد من المعارك الفكرية بعد أن تسلح بشجاعة منقطعة النظير، وأحسب أننا فى كل عام وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، نعتقد أننا سنكون محتاجين باستمرار إلى التذكير بالحكمة الخالدة التى قالها زكى نجيب محمود، إلى الكلمات الشجاعة التى صدرت عنه. سنكون فى حاجة باستمرار مهما امتد بنا الزمان أو طال، إلى التمسك بدروس زكى نجيب محمود وما أعظمها، وما أعمقها وإن كان أكثر الجاهلين فى بلادنا لا يعلمون، منهم أناس انتقلوا إلى الدار الآخرة، ومنهم فريق مازال يعيش بيننا... فريق من الأشباه والأقزام وناقصى العقل والشعور، والذين تخصصوا فى الهجوم على زكى نجيب محمود دون فحص من جانبهم لكتابات الرجل الفكرية والأدبية والثقافية على وجه العموم.

نقول ونكرر القول بأنه يعد واجبا علينا الاستفادة من دروسه في المدارس والجامعات، وفي كل جوانب حياتنا الفكرية والثقافية، بحيث تكون أفكاره هي البوصلة والمرشد والدليل في دستورنا الثقافي... لقد آن الأوان أن نتحدث عن أيديولوجية عربية، وبحيث تستند في أكثر جوانبها على فكر زكي نجيب محمود الحضاري والنقدي المستنير.

كان الدكتور زكي نجيب محمود شعلة نشاط. إنه لا يكل ولا يمل. لقد حاضر بالعديد من الجامعات العربية وغير العربية. حاضر بجامعة الكويت وجامعة الإمارات العربية المتحدة وغيرها، كما حاضر بالعديد من الجامعات الأمريكية، وعمل مستشاراً ثقافياً بواشنطن. وحصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٦٠ عن كتابه " نحو فلسفة علمية" كما حصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٧٥ وحصل أيضاً على جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وهو أول مصري يحصل على هذه الجائزة. وحصل على الدكتوراه الفخرية من الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

ومجهودات أستاذنا زكي نجيب محمود في مجال الترجمة والتأليف لا حصر لها ومن بين كتبه المترجمة على سبيل المثال لا

الحصر، الجزء الأول والجزء الثانى من تاريخ الفلسفة الغربية للفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل ، والمنطق للفيلسوف الأمريكى جون ديوى، وعدة أجزاء فى قصة الحضارة للمؤرخ الأمريكى ول ديورانت. وترجماته آية فى الأمانة والدقة. إنه أفضل عربى معاصر يستطيع النقل من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية. أذكر أن نقرأ من الحاضرين لندوة عباس العقاد الأسبوعية، سألوا العقاد عن أفضل من يقوم بترجمة مسرحيات شكسبير من اللغة الإنجليزية إلى العربية، فأجاب العقاد دون تردد. إنه زكى نجيب محمود. وصدق عباس العقاد فى هذا القول.

وقد اهتم رائدنا زكى نجيب محمود بمجال التأليف فى مجال الأدب والفلسفة. ومن منا لا يذكر قصة الأدب فى العالم وقصة الفلسفة اليونانية وقصة الفلسفة الحديثة وديفيد هيوم وبرتراند رسل ونحو فلسفة علمية وحياة الفكر فى العالم الجديد وموقف من الميتافيزيقا والمنطق الوضعى وشروق من الغرب وجنة العبيط والثورة على الأبواب وبذور وجذور وثقافتنا فى مواجهة العصر وقشور ولباب والشرق الفنان وتجديد

الفكر العربي، والمعقول واللامعقول وقصة نفس وقصة عقل وفي حياتنا العقلية ومجتمع جديد أو الكارثة وقيم من التراث وهذا العصر وثقافته وغيرها من عشرات الكتب التي لا يستغنى عنها مثقف عربي من قريب أو من بعيد. إنها كتب رائدة خاض من خلالها كثيراً من المعارك الفكرية وكلها تدعو إلى التنوير، تدعو إلى ثقافة النور والعلم والعقل، تبدد الظلام من أمامنا ويصلح كل فصل من فصولها لأن يكون دستوراً لنا في حياتنا الفكرية حاضرها ومستقبلها.

من أجل هذا كله كنت سعيداً حين تتلمذت وما أزال على يديه منذ السنوات الأولى بكلية الآداب. حين اشتركت معه في العديد من الندوات الفكرية المهمة. حين أهديت له كتاباً من كتبي، وهو ثورة العقل في الفلسفة العربية. حين أتشرف باستقباله لي في منزله بين الحين والآخر، وحتى الأيام الأخيرة من حياته.

وإذا كان الدكتور زكي نجيب محمود يفرق بين المتخصص في مجال من مجالات العلوم الإنسانية أو العلوم الطبيعية والكيميائية، وبين

المثقف. وإذا كان يدرك عن اقتناع دور المثقف في المجتمع، فإنه قد طبق ذلك على نفسه. لقد خاض رائدنا العديد من المعارك الفكرية - كما قلنا - وفي بينها معركة العلمانية ومعركة الحجاب، ومعركة أخلاق القرية، ومعركة حرمة الميتافيزيقا، والأصالة والمعاصرة، والتطرف الديني، والمناقشات البيزنطية، وحقبة تدريس الفلسفة في مدارسنا وجامعاتنا... إلى آخر المعارك الفكرية والتي تكشف لنا عن عقلية رائدة، عقلية مستتيرة، قل أن نجد لها نظيراً على امتداد تاريخنا الفكري العربي المعاصر.

حدث رائدنا وأستاذنا الكبير الدكتور زكي نجيب محمود مكانة كبرى في تاريخ الفكر العربي المعاصر إنه يعد علامة وضوء مشرقة في تاريخنا المعاصر، ولا يمكن لأي دارس لهذا الفكر العربي المعاصر أن يتغافل عن الدور الرائد، الدور الحيوي البناء الذي قام به مفكرنا العملاق ورائدنا الشامخ. لقد دخل تاريخ فكرنا المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها. ومن واجبنا أن نهتم كل الاهتمام بدراسة أفكاره وآرائه. إنها

أفكار بناءة ، آراء شامخة ناضجة من النادر أن نجد لها مثيلاً في عالمنا العربي المعاصر من مشرقه إلى مغربه، من محيطه إلى خليجه.

لقد اهتم مفكرنا العظيم زكي نجيب محمود بالفكر العربي على امتداد عصوره، أخلص إخلاصاً لا حد له لقضيته الكبرى، قضية الأصالة والمعاصرة. اهتم اهتماماً بالغاً بالإسهام في تنشيط حركة الترجمة لاعتقاده بأنه لا تنوير دون دراسة آراء الآخرين. لا تنوير إذا أغلقنا النوافذ والأبواب، بل لابد من فتح النوافذ حتى نجد الهواء المتجدد، نجد الفكر الحر الطليق. نجد الحركة لا السكون. نجد النور لا الظلام.

ولم يكن غريباً أن تهتم أكثر دول العالم بدراسة آرائه واتجاهاته الفلسفية والأدبية الكبرى. فكم من الرسائل تم إعدادها لدراسة أفكاره. كم من الكتب تم تأليفها للتعرف على أفكاره، وما أعظمها من أفكار. لقد أسهم إسهاماً كبيراً في تنشيط الحركة النقدية. لقد أثار العديد من المعارك الفكرية. آمن بأن دور المثقف، لابد أن يكون دوراً إيجابياً لا سلبياً.

هذا هو مفكرنا العملاق أستاذاً ومفكراً وأديباً. إنك لن تستطيع فهم لب فكره ولب مذهبه إلا إذا قرأت كل ما كتب سطراً سطراً بل كلمة كلمة

لقد دخل كما قلنا تاريخنا الفكرى والثقافى المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها لقد شق طريقه وسط الأشواك والصخور وترك لنا ثروة فكرية فلسفية أدبية غاية فى العمق، ولن يستطيع مفكر أو أديب أن يفعل أو يتغافل عن هذه الثروة التى تعد من أغنى كنوز العالم. إنها تعد كنزا فكريا أبدعه عقل مفكر جبار، إبداع قلم يعلم تماما أثر الكلمة المكتوبة وخطرها نعم إنه يعد عظيما بين العظماء. عملاقا، والعمالقة تبدد كلماتهم وأقوالهم ظلام الجهل سعيا وراء نور المعرفة، نور العقل، نور الضياء الذى يهدينا فى حياتنا وإذا اختلف البعض حول فكره وآرائه فإن هذا الاختلاف فى حد ذاته يدلنا على أن أفكاره تعد حية وليست أفكارا ميتة، إن الأفكار الحية دون غيرها هى التى توجب الصراع حولها لأنها أفكار المسافة بينها وبين التقليد والمتابعة أكبر من المسافة أو الفرق بين الإنسان والجن. إنه رائدنا ومفكرنا العظيم إنه زكى نجيب محمود الذى تعد كتاباته دعوة إلى التمسك بتيار العصر والحضارة تيار التجديد تيار العقلانية.

عار علينا كعرب إذا تغافلنا عن الدور الرائد والحيوى والخلاق

والذى قام به مفكرنا الكبير زكى نجيب محمود.

لقد تضمن كتابنا الصغير مجموعة من الفصول تدور حول حياته الفكرية ونماذج من بعض آرائه وتحليلات لبعض أفكاره من خلال دراسة بعض كتبه، كما كتبنا فصلاً عن علاقتنا الفكرية بالرجل رائداً وإنساناً، وذكرنا بعض مؤلفاته.

نرجو بعد هذا كله أن نكون قد قمنا بواجبنا نحو رجل رحل عن دنيانا بجسمه، رجل نعى الدنيا وصام عن الحياة. وإذا لم يكن بالإمكان إهداء هذا الكتاب للرجل في حياته، فإننا أهديناه إلى روحه في عالم الخلود، عالم السماء، حين تلتقى الأرواح بالأرواح والله هو الموفق للسداد.

المؤلف

أول فبراير عام ٢٠٠٧م

(ذكرى مولد مفكرنا الراحل)

الفصل الأول

زكى نجيب محمود... الإنسان كما عرفته.

لقد كنت ومازلت أحاور نفسى قائلاً: هب أنتى لم ألتق بالرجل
والإنسان زكى نجيب محمود. لقاء التلميذ بالأستاذ داخل قاعات الدرس
بالجامعة وخارجها. فهل كنت سأصل بمفردى إلى الأفكار التى أعتقد
بصوابها وأردها كل يوم وفى كل مناسبة؟ وسرعان ما أجيب نفسى
قائلاً: لا. لقد وصلت أفكار معلمى زكى نجيب محمود إلى أعماق أعماق
نفسى وخلجات عقلى ووجدانى وبحيث لا أتردد فى القول اليوم مؤكداً
على ما قلته منذ عشرات السنين بأننى أعتقد اعتقاداً لا يخالجنى فيه أدنى
شك بأن بصمات الدكتور زكى نجيب محمود على فكرى وعقلى تعد
بصمات واضحة وبارزة وبحيث لا بد لى من القول بأن زكى نجيب هو
معلمى ورائدى، وبشرط أن يفهم ذلك فى حدود الاتفاق والاختلاف بيننا.

إننى أشهد أن الرجل قام بصياغة عقلى صياغة جديدة تماماً. لقد عشت فى الريف سنوات طوال وكنت أعتقد بوجود الأشباح والعفرانيت بين المقابر، وكنت أخشى المرور بينها وخاصة أثناء الليل. وحين بدأ الدكتور زكى نجيب محاضراته أدركت أننى كنت أعيش فى وهم كبير وبدأت الدخول فى عالم جديد تماماً، إنه العالم العلمى. العالم القائم على التجربة وعلى العقل. وليس العالم الذى كنت أعيش فيه، عالم الأشباح والعفرانيت.

كنت أحاور الرائد والمعلم داخل قاعات الدرس حتى تكشفت أمامى مجالات جديدة تماماً لم أكن أعرف عنها شيئاً. ولم يكن الرجل يضيق بحوارى وقد تعلمت منه فن الحوار. الحوار الهادئ الذى يستند إلى العلم والمعرفة ولا يعتمد على الخطابة والبلاغة والإنشاء. لم تصدر عن الرجل المعلم والإنسان كلمة نابية واحدة، بل كان الحوار يستند إلى مجموعة من افتراض الفروض ثم التوصل إلى مجموعة من النتائج التى تعد بالغة الأهمية. والتى ظلت حتى اليوم محفورة فى عقلى ووجدانى.

نعم إننى تعلمت منه أنه لا بد من وجود أرضية مشتركة كأساس للحوار، وإلا ستكون كمن يتكلم على موجة غير الموجة التى يتحدث عليها الآخر. وإذا اختلفت الموجة فإن الحوار لن يكون مثمراً، بل سيكون كحوار الطرشان، والذين لا يسمع الواحد منهم ما يقوله الآخر.

ولم يكن وقتَ الدرس الجامعى كافياً للحوار مع الرائد والمعلم زكى نجيب محمود. والاستزادة من علمه الذى وجدته بحراً على بحر. فوجدت أنه من الضرورى أن أسعى إلى اللقاء بالرجل خارج قاعات الدرس وعلى وجه الخصوص فى منزله.

وقد سعدت بذلك سعادة بلا حدود. سعادة قصوى. وكنت أقول
لنفسى لقد تحقق أقصى ما أتمناه أن ألتقى بالمنارة العلمية الشاهقة
الارتفاع. (١)

(١) يمكن الرجوع إلى كتابنا الذى أشرفنا عليه وقمنا بالتصدير له عن زكى

نجيب محمود (دار الوفاء - الإسكندرية)

وراجع الحوار الذى أجرته معى الأستاذة سلوى العنانى ونشر بجريدة الأهرام

بالقاهرة

ولم تنقطع الصلة العلمية بينى وبين أستاذى رغم عملى فترة من الزمان خارج القاهرة وبين الوجه البحرى والوجه القبلى لقد كانت الصلة العلمية تتمثل فى صور عديدة من بينها قراءة كل ما يكتبه زكى نجيب من الكتب والمقالات وكنت أرى أنها خير ما يهدى الإنسان فى حياته. الإنسان فى كل زمان وكل مكان. إذ إنها صادرة عن عقل مبدع ومعبرة عن نكاه بغير حدود.

وبعد عملى بالجامعة أصبح الطريق ممهداً تماماً لأن ألتقى بالرجل وأجد لديه الإجابة عن العديد من الأسئلة والقضايا المثارة والتي كنت أطرحها على نفسى وأجد نفسى عاجزاً عن الإجابة عليها بسبب الضباب الذى يحيط بأكثر الآراء والتي يحسبها الإنسان الإجابة المقنعة عما يدور فى ذهنه من تساؤلات فى الوقت الذى قد تكون فيه بعيدة تماماً عن الصواب. أبعد من المسافة بين الجن والإنس. أو بين القطب الشمالى والقطب الجنوبى أو بين المشرق والمغرب.

لقد وضع الرجل الإنسان الدكتور زكى نجيب محمود يدى على الطريق أو المنهج الذى على أساسه أستطيع الوصول إلى بر الأمان.

أستطيع التوصل بمقتضاه إلى الرأى الصائب وسط ضجيج الشهرة والطبل الأجوف.

كنت سعيداً حين وجدت أنه من الضرورى والواجب على أن أهدى إليه مؤلفاً من مؤلفاتى. وهو كتاب ثورة العقل فى الفلسفة العربية. ونظراً لأن زكى نجيب محمود يمثل خير تمثيل دور الأستاذ وكما ينبغى أن يكون الأستاذ، فإنه كان فى قمة السعادة حين علم بأن هذا الكتاب كتاب ثورة العقل. كان من أكثر الكتب انتشاراً بين القراء والمتقنين وبحيث تكررت طبعاته فى أوقات متقاربة. بل كان أكثر منى سعادة.. ألم أقل لكم أيها القراء الأعزاء بأن زكى نجيب محمود هو الرائد والأستاذ الذى أدين له بالفضل طوال حياتى وحتى يرث الله الأرض ومن عليها وإلى أبد الأبدىين.

تعلمت من زكى نجيب محمود فى حوارى معه بمنزله ومن خلال قراءتى لأفكاره فى كتبه وما أعظمها وما أروعها، العديد من الدروس من بينها رعاية الأستاذ لتلميذه. إن عطاء زكى نجيب لى يعد عطاء بغير حدود. وقيامه بتشجيعى يقف الإنسان أمامه فى انبهار وإعجاب. فالصلة

بينى وبين أستاذى لم تنقطع يوماً واحداً وكم كان يطلب منه الكتابة فى بعض الموضوعات وترشيح من يراه مناسباً للكتابة. فكان لا يتردد فى نصح من يطلبون منه ذلك. أن يبادروا بالاتصال بى للكتابة وأخذ الرأى حول هذا الموضوع أو ذاك من الموضوعات التى تتعلق بقضايانا الفكرية والثقافية وما أكثرها وكنت أقول لى شرفاً لا أستحقه. فأين علمى من علمه. أين فكرى من فكره. وكم كان يقول عنى إننى أعد امتداداً لفكره ومنهجه. كما كان يقول إن بعض ما أقدمه يذكره بما كان يفعله فى شبابه.

فهل نجد الآن فى مصر أستاذاً يفعل مثلاً فعل زكى نجيب فى مجال العلاقة بين الأستاذ والتلميذ. نعم كان يقوم بتشجيعى وفتح الأبواب أمامى ولكنه لم يكن يتردد فى توجيه النقد إذا أدرك أنه يعد ضرورياً لتوجيهى وتعديل مسارى. قدمت له فى بداية عملى بالبحث الجامعى وكنت يوماً طالباً من طلابه. بحثاً عن الواحدية المحايدة عند سبينوزا ووليم جيمس وبرتراند رسل. فقرأ البحث كلمة كلمة وكتب على البحث قائلاً: سياقك واضح يدل على فهمك للموضوع ولكن كان ينبغى أن تذكر

المراجع عند كل صفحة. وكنت من جانبى سعيداً غاية السعادة لإعجابيه
بالبحث من جهة. واهتمامه بتوجيه النقد إلى من جهة أخرى.

وقد أدركت من خلاله أهمية القراءة. والقراءة الواعية المستمرة
ومن المؤسف له أننا نعيش الآن وسط أشباه يكتبون أكثر مما يقرأون. لقد
تعلمت منه أن الإنسان ينبغي أن يقرأ أكثر مما يكتب. وهذا درس من
الدروس العظيمة ينبغي أن ينظر إليه أبناؤنا بعين الاعتبار. فمن يتأمل في
الإنتاج الفكرى الذى يصدر عن مطابعتنا فى الزمن الذى نعيش فيه. يدرك
تمام الإدراك أن أكثره لا يستحق أن يقف عنده الإنسان. وحينما كان
يطلب منى إبداء رأى حول كتاب من الكتب كنت أتذكر باستمرار دروس
زكى نجيب محمود والتي تتبلور حول أمانة الكلمة وخطورة الكلمة
المطبوعة. وبعد قراءتى لأكثر ما يصدر عن مطابعتنا العربية كنت أقول
لنفسى: إلى الجحيم وصناديق القمامة أيتها الكتب التافهة وبئس المصير.

وقد تعلمت من زكى نجيب محمود أهمية أن يكون الإنسان
متسلحاً بالشجاعة الفكرية. أهمية أن يكون الإنسان مثقفاً. وأن التخصص
فى علم من العلوم لا يعنى بالضرورة أن يكون صاحبه مثقفاً. فالمواطن

الحقيقي هو من يضيف إلى تخصصه، اهتماماً بالمعرفة الإنسانية الشاملة من آداب وفنون وقضايا ثقافية وجمالية. أدركت من خلاله ضرورة أن يكون لكل فرد منا موقفه. وأنه لا بد أن يبادر بإعلان رأيه والدفاع عنه، دون السخرية من آراء الآخرين. نعم تعلمت منه ذلك لأنني أدرك تماماً أن رائدنا زكي نجيب قد خاض العديد من المعارك الفكرية^(١) والتي تعد على درجة كبيرة من الأهمية. لم تكن تلك المعارك من نوع المعارك التي تثار الآن. المعارك المفتعلة والتي تكشف عن درجة كبيرة من التخلف العقلي ونقص في الذكاء بل إنها كانت معارك تحل درجة كبيرة من الأهمية وستظل أهميتها باقية أبد الدهور وبحيث نقول إننا لا نتصور تاريخاً فكرياً لمصر المعاصرة إلا إذا قمنا بتسجيل كل أقوال زكي نجيب حول تلك المعارك الفكرية. فما أعظمها وما أروعها.

(١) رحل زكي نجيب عن عالمنا قبل تقديمي لمحكمة جنایات المنصورة في الخامس

عشر من شهر مايو عام ١٩٩٥. وكنت أول أستاذ للفلسفة في تاريخ مصر يستم

تقديمه في قضايا فكرية أمام محاكم الجنایات.

لقد أدركت من خلال الدروس التي تعلمتها من زكى نجيب محمود أهمية الاستفادة من الندوات الفكرية وعلى رأسها ندوة عباس محمود العقاد وخاصة أنني أعلم مقدار الحب الذي يكنه زكى نجيب للعقاد. لم أتخلف عن حضور ندوة من ندوات العقاد إلا في بعض الحالات القليلة. ومن الميسف له أن أكثر من يتحدثون عن العقاد وندوته الفكرية الأسبوعية. كان من النادر أن ألقى واحداً منهم. ألا يعد هذا دليلاً على الكذب الذي ساد أوساطنا الثقافية. ويشاء القدر أن أعمل بأسوان ثلاث سنوات ولم أتخلف خلالها عن حضور ندوة من ندوات العقاد والتي كانت تتم مرتين كل أسبوع طوال شهر يناير من كل عام. لقد أدركت أهمية حضور ندواته من خلال حديث زكى نجيب محمود عنها.

وما يقال عن ندوة العقاد، يقال عن غيرها من المؤسسات الفكرية الأكاديمية. فإن حديث الدكتور زكى نجيب عن الأب جورج قنواتى بكل احترام وتقدير . أدركت من خلاله الدور العظيم والرائد للأب قنواتى مدير معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومينكان بالقاهرة، وكنت حريصاً

على الاستفادة من مكتبة الدير والتي تعد على رأس مكتبات الشرق الأوسط من حيث الدقة والنظام وشمول المعرفة. وقد قضيت بالدير خمس سنوات تلميذاً ومتعلماً وراغباً في القراءة المستمرة (منذ عام ١٩٦٩ حتى عام ١٩٧٤).

لقد تكشفت لي عوالم جديدة - كما قلت - من خلال صلتى العلمية المستمرة بزكى نجيب محمود. لقد أدركت من خلاله أهمية العزلة والبعد عن المناصب الإدارية الزائفة. كان ينتهى من محاضراته بالجامعة وبعد دقائق قليلة يكون داخل منزله قارئاً متأملاً. لقد أثر هذا السلوك فى نفسى حتى الآن وخاصة بعد أن أصبح الناس غير الناس، وتلاشى وجود أخيار الناس أمام جحافل الأشرار.

وأكثر موافقى من التراث قد تعلمتها من زكى نجيب محمود. وكنت بعد قراعتى لما يكتبه أتناقش معه وأدرك بعد المناقشة أن العيب إذن ليس من الضرورى أن يكون فى التراث. ولكن العيب فى الفهم الخاطئ للتراث.

فى تراثنا مساحات مظلمة. فى تراثنا كم هائل من الخرافات تزيد عن عدد سكان الدول العربية، ولكن لا يصح أن ننكر وجود النور والتوير داخل بعض كتب التراث، وهل يمكن أن نقلل من المساحات المضيفة عند إخوان الصفا وعند ابن رشد وعند أبى العلاء المعرى وابن الرومى والمتنبى. أليست أقوال هؤلاء أفضل ألف مرة من الكلمات المتقاطعة التى نجدها عند أناس من أشباه الكتاب والأدباء فى تاريخنا المعاصر، منهم من قضى نحبه ومنهم من لم يزل على قيد الحياة. وقد قاموا بتسويد آلاف الصفحات التى تكشف عن جهلهم الفاضح.

كنت أرجع إلى زكى نجيب محمود قبل إقدامى على القيام بأى عمل من الأعمال الفكرية، لأننى أعتقد أن زكى نجيب محمود يمثل النور والضياء، يمثل البوصلة الفكرية التى يجب أن يهتدى بها كل مشتغل بالفكر وقضاياها، بالثقافة ومشكلاتها. وحينما طلب منى إلقاء محاضرة عنه بقصر الثقافة بدمياط فى مناسبة مرور ثمانين عاماً على مولده، سعيت إلى منزله للاستفسار منه عن بعض الإشكالات التى قد تثار عن طريق أسئلة المستمعين ومن بينها علاقة الوضعية المنطقية بتجديد الفكر العربى، أكد

لى على ما كنت أعتقده من أنه لا تعارض بينهما وهذا على الخلاف من أقوال أشباه الباحثين وقد حدث ما توقعته، فقد جاءت أكثر الأسئلة حول هذه الإشكالية سواء فى محاضرتى عنه عام ١٩٨٥م، أو فى عام ١٩٨٦ أثناء حفل تكريم هذا الرائد والأستاذ العظيم بدمياط وكان حاضراً حفل التكريم، ولم تشهد دمياط فى تاريخها القديم وتاريخها الحديث، حدثاً ثقافياً، مثل الحفل الذى تم يوم تكريم هذا الرائد والأستاذ العظيم وقد سعت إلى منزله للتهنئة بجائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بعد ذلك بأيام خاصة وأنه يعد أول مصرى يحصل على تلك الجائزة الكبرى. ولازلت أذكر قوله بأن منحه هذه الجائزة يدل تمام الدلالة على أن العروبة ثقافة قبل أن تكون سياسة.

تعلمت من زكى نجيب محمود ضرورة أن يهتم المثقف بقراءة الكتب الأدبية وكم توجد خصائص مشتركة تجمع بين الفكر الفلسفى والفكر الأدبى. نجد هذا عند القدامى أمثال المتنبى وأبى العلاء المعرى، وابن الرومى وأبى حيان الترحيدى فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، وعند كل من يمثلون أدب التفسير وليس أدب التعبير، ونجده عند المحدثين من أمثال زكى نجيب محمود وول ديورانت صاحب قصة الحضارة، وطه

حسين الرائد الأول للتطوير في مصرنا المعاصرة وعالمنا العربى من مشرقه إلى مغربه.

وكم كان الدكتور زكى نجيب حريصاً على أن يكشف لى الفرق بين الريادة الحقيقية، والريادة الزائفة الكاذبة. إن طه حسين لم يصبح طه حسين إلا لأنه فعل واجتهد وكافح حتى أصبح طه حسين، وما فعله طه حسين، نجده عند العقاد وغيرهما من الرواد الحقيقيين. أما الآن فقد أصبحت القدوة غير القدوة. الريادة غير الريادة.. لقد أصبحت القدوة عند فتاة اليوم راقصة من الراقصات. أصبحت القدوة عند شباب اليوم لاعباً من لاعبي كرة القدم وإن هذا يعد دليلاً على أننا نهتم بأرجلنا قبل أن نهتم بعقولنا. أليس هذا من نكد الزمان.

ومن أعظم العبارات التى تتعلق بالمجال الذى نتحدث عنه الآن العبارة التى ذكرها زكى نجيب فى آخر كتابه حصاد السنين^(١). إنها عبارة يجب أن نقف عندها ونتأمل فى كل كلمة من كلماتها. يقول زكى نجيب محمود (ص ٤٢٤-٤٢٥): إن عندنا وعند أمثالنا ممن ضلحت معلوماتهم الصحيحة، فقل وعيمهم بنفس المقدار، تكثر عملقة الأقرام، إذ

(١) نرجو الرجوع إلى تحليلنا النقدى للكتاب فى فصل من فصول هذا الكتاب

ليس على القزم الطموح برغم جهله وقصوره إلا أن يستخدم وسائل الإعلام لصالحه، فما أسرع ما يتحول في خيال الجماهير وفي وهم الحاكمين إلى عملاق حتى يتحول إلى أن يكون عالماً بغير علم ، أديباً بلا أدب، أى شئ بغير شئ. وتتصل بعملاقة الأقرام عملية أخرى قد تستوجبها الظروف فيلجأ إليها القزم الطموح. وهى عملية يجوز تسميتها كما أسماها صاحبنا ذات يوم فيما كتب. " قرصنة فى بحر الثقافة". فالقراصنة يخطفون أموال ضحاياهم وبضائعهم لتصبح ملكاً لهم، وكذلك يفعل قراصنة الثقافة فى حياتنا . فليس المهم عند أحدهم أن يقوم هو بالعمل ، بل المهم هو أن يضع عليه اسمه اغتصاباً.

أذكر أنني تحدثت مع معلمى زكى نجيب طويلا حول هذه العبارة وكم ذكرت له مجموعة من الأسماء المشهورة والذين يدخلون فى مجال القرصنة، ولا أجد داعياً الآن لتحديد أسمائهم أو الإشارة إليهم. كنت أتحدث مع زكى نجيب عن الأساليب الملتوية والتي من خلالها يحاول أشباه المثقفين ، التأكيد للجمهور بأنهم من المثقفين، وذلك على الرغم من عدم وجود صلة بينهم وبين الثقافة من قريب أو من بعيد، فالثقافة منهم

براء. كنت أتحدث معه عن ضرورة وجود محاكم للغش الفكرى، وكان بطوننا ومظهرها الخارجى أهم لدينا نحن العرب، من عقولنا وفكرنا ووجداننا.

نعم لقد استفدت من زكى نجيب استفادة بغير حدود. استفدت منه مجموعة من الآراء حول قضية الأصالة والمعاصرة، وأعتقد - تأكيداً على ما قاله توفيق الحكيم - بأننا لا نجد فى تاريخنا الفكرى المعاصر من اهتم بهذه القضية قدر اهتمام زكى نجيب. لقد كان من المفروض أن نتبنى أفكار الرجل ونخلص كل الإخلاص فى دراستها، لأنها على رأس قضايانا الفكرية وتعد من أهم مطالبنا الفكرية. ولكننا للأسف الشديد لم نفعل ذلك لأننا نعيش - كما قال توفيق الحكيم فى تحيته التى وجهها إلى زكى نجيب فى عيد ميلاده الثمانين - فى مجتمع الصراصير التى تتقاتل مع بعضها البعض ، وليس فى مجتمع النمل الذى تتعاون فيه كل نملة مع الأخرى.. تعلمت من زكى نجيب ألا أكتب إلا ما أعتقده، لا أتحدث إلا عن إيمان من جانبى بما أراه صواباً. فأين نحن الآن من دروس زكى نجيب، وقد تحول

أكثرنا إلى تجديد قلمه لترسيخ التخلف الفكرى.. لقد أصبحت مساحة الفكر التقليدى الرجعى والذى يمثل اللامعقول. أضعاف أضعاف مساحة الفكر التقدّمى المستتير. أصبحت الكتابة عن الفكر الرجعى التقليدى تدر على أصحابها آلاف الدولارات، وهذا على العكس تماماً من الكتابة عن أصحاب الفكر المستتير.

لم يتقلد زكى نجيب محمود طوال حياته منصباً من المناصب. وأقول إنه كان على حق تماماً، إذ نجد التعارض التام بين أمور المنصب والإدارة، وبين الاهتمام بالفكر وقضاياها. ولن نجد فى تاريخنا المعاصر مفكراً من المفكرين استطاع أن يجمع بدقة وتفان وإخلاص بين المنصب والجوانب الفكرية. لقد تعلمت ذلك من زكى نجيب محمود.

نعم لقد استمرت المناقشات بيننا سنوات طوال زادت بكثير عن ربع قرن من الزمان وأقول بأننى لا أتصور مثقفاً إلا وأن يقرأ كل ما كتب زكى نجيب.. إنه هرم ثقافتنا العربية.. ومن المنطقى أن نجد العديد من الكتب والرسائل التى تهتم بفكره الثاقب وآرائه الناضجة، وبعضها

كان وما زال تحت إشرافى فى أكثر من جامعة من الجامعات المصرية. (١)
 من المنطقى أن تدور مناهج الفكر العربى الحديث حول زكى نجيب
 وآراء زكى نجيب. لأنه دخل تاريخنا الفكرى من أوسع الأبواب وأرحبها.
 لقد اعتز بمصر وأخلص لها إخلاصاً بغير حدود. وكم كان حريصاً على
 أن يكشف لى أننا إذا وجدنا مجلة عربية تصدر فى هذه البلاد أو تلك. فإن
 مصريتها تتمثل فى كون أكثر كتابها من المصريين.

كان النقاش بيننا مستمراً فى الصباح وفى المساء وكم اتفقنا فى
 أكثر الآراء واختلفنا فى قلة قليلة منها. اتفقنا حول كل آرائه فى القضايا
 الكبرى كقضية الغزو الثقافى وأنها قضية زائفة. وقضية التقدم العلمى
 والأخلاق. وقضية موقفنا من الغرب، كل هذه القضايا اتفقت مع أسنأذى
 فى كل رأى قاله حولها. واختلفنا حول بعض الجزئيات ومنها دور بعض
 الأعلام القدامى، فإذا كشف عن أهمية أبى حامد الغزالى فى مجال من
 المجالات، فإننى أقول إن الغزالى يقف على قمة عصر الرجعية، لأنه
 حارب الفلسفة والفلاسفة. اختلفنا حول موضوع ترجمة الكتب الطبية

(١) أشرنا إلى بعضها فى قائمة المراجع.

والتدريس بالعربية وكان يرى بأنه من الضروري ترجمة الكتب الطبية ويقدم الحجج الدقيقة على مشروعية هذا العمل وأهميته. وكنت أقول بأنه من الضروري أن يتم تدريس الطب باللغات الأجنبية حتى لا نجد قصوراً في معلومات الطلاب، إذ إن الطب لا يتقدم حالياً إلا في البلدان الأوروبية وإذا وجدنا بلداناً عربية تقوم بتدريس الطب بالعربية، فإنه ليس من الضروري أن نجد إنجازات طبية لها أو أى نوع من الاختراعات أو الاكتشافات العلمية الطبية.

نعم كان يتحدث عن طلابه أكثر من الحديث عن فكره الخالد. وهل أنسى ما قاله عنى فى أكثر من برنامج من البرامج الإذاعية والتلفزيونية. هل أنسى ما كتبه عنى. وكل سطر من سطور خطابه يعد درة من درر أدبنا الرفيع. هل أنسى استقباله الحافل لكتبى التى قمت بتأليفها والتى قمت بالإشراف على بعضها. ويوم صدر الكتاب التذكارى تحت إشرافى عن مؤرخ الفلسفة "يوسف كرم" والذى ظلم حياً وظلم ميتاً، احتفل بالكتاب احتفالاً بغير حدود وذكر لى أنه يعد من أفضل الكتب التذكارية التى صدرت بمصر وعالمنا العربى. وهذا القول من جانبه يعد

تشجيعاً لى بغير حدود، لأن هذا الكتاب قد صدر كما قلت تحت إشرافى وبعد أن قام أستاذى زكى نجيب بتكليفى بهذا العمل فى فترة رئاسته للجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة.

ومن مصادفات القدر أننى فى سنوات العلم الأولى كنت أقرأ لزكى نجيب محمود: وحين حصلت على الدرجة النهائية فى الفلسفة فى السنة التوجيهية بمدرسة دمياط الثانوية، كانت الجائزة المخصصة لذلك مجموعة من الكتب من بينها كتاب أثرت الحرية تأليف كرافتشنكو وترجمة زكى نجيب محمود . ثم يدور الزمن دورته وأجد الرجل الإنسان. أجد زكى نجيب محمود يدخل علينا قاعة من قاعات الدرس بأداب القاهرة ليلقى علينا أول محاضرة من محاضراته على طلاب هذه السنة.

وإذ كنت قد كتبت مئات الصفحات عن فكر وفلسفة الرائد العظيم زكى نجيب وعن كتبه. فقد وجدت اليوم واجباً على أن أكتب عن زكى نجيب الإنسان من خلال علاقتى به، علاقة التلميذ بالأستاذ والابن بالأب الفكرى . وأقول دوماً بأننى أفخر أننى عشت فى عصر زكى نجيب

محمود. إن هذا من نعم الزمان ومن أسعد الأشياء التي ستظل محفورة في ذاكرتي طوال رحلة العمر.

غير مجدٍ في يقيني واعتقادي إغفال الأفكار الرائدة والبناءة التي غرسها فينا نحن العرب مفكرنا الشامخ زكي نجيب محمود، وخاصة في مجال الفكر النقدي. إنها أفكار تؤدي بنا إلى الأمام سعياً نحو النور والتنوير. وليست من قبيل الأفكار التي تؤدي بنا إلى الصعود إلى الهاوية وبحيث نعيش في الظلام والضياء، الأفكار التي يحاول الترويج لها أشباه المتقفين.

إن الحس النقدي يعد بارزاً في دراسته لمشكلة الأصالة والمعاصرة وكان ملازماً له طوال حياته الفكرية. لقد استغرق منه البحث في قضايا التراث من خلال رؤية نقدية أكثر من أربعين عاماً لقد أكد لي في لقاء تم بيننا عام ١٩٨٥ بمنزله ونحن نستعد من جانبنا للاحتفال بمرور ثمانين عاماً على مولده، على ما سبق أن ذكره في كتابه "قصة عقل": لقد قال لي إن تفكيره في المزج بين الثقافة العربية والثقافة الغربية قد بدأ في عام ١٩٥٦ ثم صاغ الفكرة في عام ١٩٦٠ وذلك في كتاب

الشرق الفنان (١) إن هذا الكتاب يعد خطة تفكير. أى خطة بحث فى المشكلة التى وهب زكى نجيب لها عمره. كما ذكر ذلك بحق على صفحات جريدة الأهرام عملاق الأدب العربى توفيق الحكيم، ونعنى بها مشكلة الأصالة والمعاصرة وما يدور حولها من أسس نقدية. ومن البحث فى كيفية تجديد الفكر العربى والبحث فى أفضل الصيغ والحلول المناسبة لمشكلات هذا الفكر، والبحث أيضاً فى كيفية مواكبة تيار العصر، تيار الحضارة، الحضارة الغربية على وجه الخصوص صنع الدكتور زكى نجيب محاور قضاياها الرئيسية.

نقول ونكرر القول، إننا نجد أخطاء فاضحة وشنيعة عند من يقولون بأننا نجد تناقضاً بين مرحلة أولى عند زكى نجيب، ومرحلة ثانية، مرحلة الوضعية المنطقية والتجريبية العلمية. ومرحلة الاهتمام بالفكر العربى. كلاهما سادة. إذ لا يمكن الحديث عن الفكر العربى عند زكى نجيب إلا إذا وضعنا فى اعتبارنا. أنه أقامه على إيمانه بالوضعية

(١) ذكر لى زكى نجيب محمود أن توفيق الحكيم أبدى إعجابه الشديد بهذا الكتاب

المنطقية وبحيث كانت لديه منهجاً وليس مذهباً. إن هؤلاء الأشباه والأنصاف من الدارسين لم يضعوا في اعتبارهم اهتمامه بالكتابة عن "جابر بن حيان" في مرحلة مبكرة نسبياً. نعم وقعوا في أخطاء شنيعة حين قالوا بالمرحلتين لأنهم تعودوا على الكتابة في كل شيء، دون فهم من جانبهم لأي شيء وبحيث كانت كتاباتهم العرجاء تعد جهلاً على جهل. وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

أذكر للتاريخ أن مفكرنا الكبير قد ذكر لي في لقاء تم بيننا قبل وفاته بقليل. أنه لا تعارض بين إيمانه بالوضعية المنطقية. ودراساته النقدية في مجال تجديد الفكر العربي. بل نقول إن استفادة زكي نجيب من الوضعية المنطقية قد هيأت له وساعدته حين ميز بين المعقول واللامعقول. ونحن نعلم أن هذا التمييز من جانبه إنما قام بالدرجة الأولى على الحس النقدي لديه. تماماً كما فعل ابن رشد آخر فلاسفة العرب حين ميز بين الفكر الخطابى التقليدى. والفكر البرهانى الفلسفى على أساس إيمانه بالتأويل.

وكان تاريخ الفكر أيها السادة القراء يعيد نفسه. فإذا كان الصغار من أشباه الأساتذة قد حاولوا وصف ابن رشد بأنه سلفى تارة أو أشعري تارة أخرى فإننا نجد أقزام الباحثين يقولون بوجود مرحلة ثم مرحلة أخرى تناقضها عند زكي نجيب محمود.

إنني أذكر ابن رشد على وجه الخصوص لأنه يرتبط بذكرى معينة خاصة بلقاء لي مع زكي نجيب محمود. فإذا كان مفكرنا زكي نجيب لم يعتمد على ابن رشد حين ألف كتابه "تجديد الفكر العربي"، إلا أنه كان يقدر آخر الفلاسفة "ابن رشد" تقديراً كبيراً. ولم يتردد في قبول مراجعة كتاب لي صغير عن ابن رشد كلفتني به المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم منذ أكثر من ربع قرن من الزمان وقد صدر هذا الكتيب في مناسبة استعداد الجزائر للاحتفال بمرور ثمانية قرون هجرية على وفاة العملاق الشامخ ابن رشد، وأعترف أن زكي نجيب قد قدم لي العديد من الملاحظات البناءة منذ أن شرعت في تأليف هذا الكتيب وإلى أن صدر عام ١٩٧٨م. وذلك رغم طول اشتغالي بفلسفة ابن رشد.

نعم إن الحس النقدي عند زكي نجيب يعد بارزاً غاية البروز.
 ونحن نعلم أن النقد يعد أبرز خصائص الفلسفة والتفلسف. فإذا كان زكي
 نجيب قد التزم طوال حياته بهذا الحس النقدي. فإنه من الواجب علينا
 وضع الرجل في منزلة كبرى تماماً كما ننظر إلى طه حسين والعقاد
 وتوفيق الحكيم والأب جورج قنواتي. واجب علينا دراسة مؤلفاته وتحليل
 أفكاره. وأنا على يقين من أننا سنجد فيها كعرب الفائدة كل الفائدة. نعم
 لابد من إعادة تحليل أفكاره.

خاض زكي نجيب العديد من المعارك الفكرية من منطلق إيمانه
 بأهمية النقد لقد دافع من خلال معاركه عن فكر الغرب. وحضارة الغرب
 التي قدمت للإنسانية الكثير من الإنجازات الضخمة والبناءة. وكان يرى
 أن المتأخر لابد أن يلحق بالمتقدم. وبحيث لا يصح أن نطلب من المتقدم
 أن يقف في مكانه حتى يلحق به المتأخر. كان يرى أهمية النظر إلى
 الأمام.. النظر إلى المستقبل. وإذا كان الله قد خلق أعيننا في مقدمة
 رؤوسنا، فكأنه قد طلب منا النظرة التقدمية. وليست النظرة الرجعية
 والعياذ بالله.

لم يرتض لنفسه موقف الذين يخلطون بين الدين والسياسة،
وبحث يقومون بالإساءة للدين تارة والسياسة تارة أخرى. ونعنى به
موقف الاتجاه الأصولي.

لم يخلط بين الدين والعلم. فالدين ثابت والعلم متغير. ولا يمكن أن
نلحق الثابت بالمتغير ونحسب أن هذا الموقف من جانب زكي نجيب يعد
صائبا غاية الصواب. إنه موقف يتفق مع الاتجاه العقلي، وهو الموقف
الذي نجده عند طه حسين في أعظم كتبه "من بعيد"، وعند توفيق الطويل
في كتابه "التنبؤ بالغيب". وأيضاً عند فؤاد زكريا في العديد من كتبه.

دافع مفكرنا الكبير زكي نجيب من خلال العديد من كتبه عن
العقل والمعقول. وقد وجدت من واجبي حين انتهيت من كتابي "ثورة
العقل في الفلسفة العربية"، أن أقوم كما قلت منذ قليل بإهدائه إلى زكي
نجيب، وكان ذلك منذ أكثر من ربع قرن من الزمان. وكان حريصاً على
الربط بين الاتجاه العلمي والاتجاه العقلي. إنه يقول في أول سطر خطه
في واحد من أهم كتبه: أنا مؤمن بالعلم.. الخ.

ولم يكن زكي نجيب محمود مجرد مررد لآراء هؤلاء الذين يفخرون بالعلوم عن العرب. إنه يعلم أن علوم العرب تعد وصفية كيفية لم تتمخض عنها إنجازات تذكر. أما العلم الدقيق فينبغي أن يكون كما، وكما فقط. وهذا ما نجده في العلم الحديث.

وأحسب أن هذه الفكرة الصائبة من جانب زكي نجيب إنما تعد نوعاً من التأثير بما ذهب إليه طه حسين في كتابه "من بعيد" والذي رأى أن الويل للأمة العربية حين تلجأ إلى كتاب القانون في الطب لابن سينا أو تذكرة داود وبحيث تجعل هذه الكتب وغيرها مراجعها في علم الطب!!.

إن القارئ لأفكار زكي نجيب النقدية. لابد وأن يدرك الجهد الكبير الذي بذله. إنه صاحب رؤية متميزة. رؤية تصدر عن ذكاء ثاقب، وعقلية من النادر أن نجد مثيلاً لها. إنه لا يقرأ التراث كقراءة الأشباه وأنصاف المتقفين الذين يتاجرون بالتراث وينشرون الظلام في أرجاء الدنيا. بل يقرأ التراث قراءة نقدية. ولا نمل من جانبنا في أن نقول إننا قد نجد في كتب التراث كما هائلاً من الخرافات... يقول زكي نجيب في كتابه الرائع "قصة عقل": "لقد قرأت ما قرأته (من التراث العربي) ليكون حكماً

عليه قائماً على معايير عصرنا نحن من حيث انتفاع الناس به أو عدم انتفاعهم".

لقد مات زكى نجيب ولكن أفكاره ستظل إلى أبد الأبد في عقولنا ومشاعرنا ووجداننا. إنها أفكار حية عظيمة رائعة صدرت عن إنسان آمن بربه وآمن بوطنه وأحسب أن روح زكى نجيب محمود تحلق الآن في سعادة حين تعلم أن أفكار صاحبها قد قدر لها الخلود فتحية له من تلميذ له مازال يعيش في عالم الفساد والزوال. وإلى أن تلتقى الأرواح بالأرواح في عالم الخلود كل الدعاء والتحية لك يا أيها الأستاذ العظيم زكى نجيب محمود.

نعم لقد عرفت الرجل عن قرب واتفقت معه تارة واختلفت معه تارة أخرى. ولقد كان سعيداً بالاتفاق والاختلاف بيننا. ولم لا؟ وهو مفكر رائد، كما كان سعيداً بإشارة توفيق الحكيم بدراستي عن زكى نجيب والتي ألقيتها في محاضرة مطولة بدمياط، ثم نشرت بالأهرام الدولى.

وقد كنت طوال حياتي حريصاً على إحياء أفكار زكى نجيب محمود رغم اختلافى - كما قلت - معه حول بعضها وعلى النحو الذى

أشرت إليه منذ قليل. كتبت عنه في العديد من كتبي. ومن النادر أن نجد كتاباً من كتبي يخلو من الحديث عن زكي نجيب محمود وفكره الأدبي والفلسفي. لم أقم بذلك من منطلق إسهاده بي في كثير من المناسبات الفكرية والثقافة، وقوله بأنني أعد استمراراً له^(١).

كما كنت حريصاً على إصدار مجلد تذكاري ضخم عنه، وقد صدر المجلد منذ عدة سنوات وبعد رحيله عن دنيانا.. كما كتبت عنه في الكتابين التذكاريين وقد صدر واحد منهما قبل وفاته (جامعة الكويت) والآخر بعد وفاته (المجلس الأعلى للثقافة).

وقد يعد المجلد التذكاري الذي صدر تحت إشرافنا أكثر شمولاً من المجلدين المشار إليهما، إذ نجد بهما عيباً جوهرياً كان لا يصح الوقوع فيه وهو وجود عدد من الدراسات المهداة إليه، وليست عن فكره. وقد تعجبت وأسفت لذلك لأن أفكار زكي نجيب محمود تعد بالغلة الثراء والتنوع والتشعب من خلال آلاف الصفحات التي تركها لنا وكتبها طوال أكثر من نصف قرن من الزمان.

(١) يمكن الرجوع إلى الحوار الذي نشر بآخر ساعة قبل وفاته بعدة سنوات، وقامت بإجراء الحوار معه الصحفية الأستاذة وفاء الشيشيني.

ويكفى أن نقول للتدليل على ذلك إن المجلد الذى كان تحت إشرافنا جمع عدة محاور وموضوعات من بينها وعلى سبيل المثال لا الحصر، من صميم حياته، والسياسة والمعارك الفكرية، والمضمون السياسى فى فكره، والدعائم الأخلاقية للدولة عند زكى نجيب محمود، وإشكالية الأصالة والمعاصرة عنده، ومنهجه فى نقد اللامعقول من التراث، ودور اللغة فى تجديد الفكر العربى عند زكى نجيب، والإطار العلمى لتجديد الفكر العربى من منظوره، الشخصية المصرية عند زكى نجيب، وخصائص الفكر العربى المعاصر عنده، والعقل والوجدان عنده، وموقفه من التصوف، وفلسفته الجمالية، والدلالات الأخلاقية فى فكره، والجانب الأدبى عنده، والتجريبية العلمية عنده، والاتجاه العلمى وموقفه من الميتافيزيقا، هذا كله بالإضافة إلى تحليلات نقدية للعديد من كتبه ومن بينها قيم من التراث، والمعقول واللامعقول،... الخ.

هذا كله يعد جزءاً قليلاً من واجبى نحو رجل نعتز بفكره، رجل أحب مصر والعروبة حباً جماً. وقد وجدت من جانبى أن أبادله حباً بحب، وعطاء بعطاء، وبحيث لا نكون كالقطة التى تأكل أبناءها، وأيضاً لكى نقضى على مقولة الكثيرين الآن الذين يقولون إننا جيل بلا أساتذة. إنهم - فى رأينا - جيل الصغار والأقزام والأشباه وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

الفصل الثاني

صفحات من حياته الفكرية ونماذج من بعض آرائه التنويرية

(أول فبراير عام ١٩٠٥ - التاسع من سبتمبر عام ١٩٩٣ م).

إذا كنا نقول بأن هرمانا الفكرى والنقافى والأدبى، يمثله عباس العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم، فإن من الصحيح، بل من الضرورى أن نضم إلى هؤلاء الثلاثة، مفكرنا زكى نجيب محمود.

إن الدور الرائد والحيوى الذى أداه زكى نجيب محمود لا يقل بأى حال من الأحوال عن أى دور قام بأدائه أعظم المفكرين العمالقة فى أمتنا العربية قديماً وحديثاً. وأن أى كلمة أو عبارة يقول بها زكى نجيب محمود ستظل محفورة فى عقل ووجدان شعوب العالم أجمعه شرقاً وغرباً. فإذا نطق زكى نجيب محمود، فقد نطق الحكيم. وإذا كتب، فإن كتاباته تعد تعبيراً عن منارة الفكر، عن الشعلة الخالدة، شعلة العقل الذى يعد أعظم الأشياء قسمة بين البشر.

لهذا كله لم يكن غريبا أن يلتف ملايين القراء حوله، وأن تكون كتاباته وأحاديثه مثار مناقشات وتعليقات لا حصر لها، إنها كتابات حية وليست ميتة، كتابات تعد معبرة عن تيار العصر وجوهر الحضارة كما ينبغي أن تكون الحضارة، كتابات تعد فتحا عظيما لآلاف الأفكار والآراء، كتابات ثمرة للعقل الثاقب، كما تعد كتاباته ثمرة لاطلاعه الواسع الغزير، ثمرة لاعتقاده بأن الفكر يجب أن يكون قضية الإنسان الرئيسية وجوهر حياته.

والواقع أنه يعد من الصعب، بل من المستحيل تماما أن نعرض لجوانب فكر زكي نجيب محمود، في دراسة واحدة، إذ إن فكره يعد ثريا غاية الثراء وعميقاً غاية العمق. ويشهد على ذلك عشرات الكتب التي قدمها لنا، ومئات الدراسات الجادة التي وضعها بين أيدينا والتي تعالج موضوعات شتى فلسفية وأدبية وفنية واجتماعية إصلاحية، ومئات المقالات التي تعد كل واحدة منها معبرة عن فكرة أو مجموعة من الأفكار يتميز بها مفكرنا الكبير ولا تعد معبرة عن نوع من المتابعة أو التقليد للآخرين. وأيضا العديد من الأحاديث الإذاعية والتلفزيونية سواء في

مصر أو خارجها، وكم كانت تلك الكتب والدراسات والمقالات والأحاديث هادية ومرشدة لآلاف القراء والدارسين والباحثين إلى اكتشاف عوالم جديدة لم يكن بإمكانهم اكتشافها ولا التوصل إليها، بل الاقتراب من حدودها ومعالمها وأبعادها ومجالاتها إلا بفضل زكى نجيب محمود. وعظمة زكى نجيب محمود وذكائه الخارق النافذ إلى أعماق أعماق وجودنا الفكرى والتقافى وذلك عن طريق التأمل العميق والتحليل الذى يسبر أغوار كل فكرة وكل مشكلة وما أكثر تلك الأفكار والمشكلات. نقول هذا رغم أننا قد نختلف مع مفكرنا حول فكرة أو أكثر من الأفكار التى قال بها.

إنه من المستحيل تماما أن نعبر من خلال دراستنا هذه عن جوانب فكر زكى نجيب محمود ومذهبه، إنه مجدد، والمجدد لا يكون متابعا للآخرين ولا عالة عليهم. مثله فى ذلك مثل من يريد الحصول على ثمرة من الثمار، إنه يحدد مكانها ويصعد بنفسه لاقتطافها من فوق الشجرة، أما المقلد فإنه يكون كما قلت متابعا وعالة على الآخرين، إنه يحصل على الثمرة من تحت الشجرة اعتماداً على أن أفراداً آخرين سبقوه

بأن وضعوا تحت يديه تلك الثمرة. إن مجددا كزكى نجيب محمود قد سار فوق الصخور والأشواك ومهد لنا الطريق. إنه يعد كالبوصلة التي تحدد اتجاهنا وتهدينا إلى الطريق السليم، ولم لا؟ وفكر زكى نجيب محمود يعد معبرا عن روح العصر وتياره الأصيل.

من أجل هذا كله، فإننا لا نجد مفرا من التركيز على جانب رئيسي من جوانب فكره. الجانب الذي يتبلور حول قضية التجديد وكيف كانت دعوته للتجديد تعبيراً عن تيار العصر وروح الحضارة. هذه القضية التي ترتبط بالعديد من القضايا في حياتنا المعاصرة. وكلما تمر علينا في المستقبل سنوات وسنوات وقرون وقرون، سيزداد تقديرنا لفكر الرجل وعمق آرائه لأن المجدد بما يتمتع به من الذكاء الحاد وأصالة البصيرة إنما يتخطى عصره، إنه يخترق حجب الماضي والحاضر متجهاً إلى المستقبل. المستقبل الذي لا يدركه المقلد لأنه يجتر من ماضيه أساساً في حين يكتشفه المجدد بعمق نظرته وأصالة تأمله. وقد أدرك مفكرنا زكى نجيب محمود عن طريق العقل. والعقل أساساً، وليس عن طريق رؤية

صوفية أو تجربة وجدانية. وطريق العقل فى كل زمان وفى كل مكان
إنما يختلف اختلافا جذريا عن طريق الذوق والوجدان والتصوف.

ولنشر الآن إشارة موجزة إلى الحياة الفكرية لركى نجيب محمود،
ثم نعرض لبعض أبعاد اتجاهه الفكرى مركزين كما قلت على المجال
الذى يتعلق بقضية التجديد والدعوة إلى حركة التنوير العقلى، وكيف بدأت
إرهاصات هذا التجديد والتنوير خلال مكونات حياته الفكرية.

ولد زكى نجيب محمود فى قرية ميت الخولى عبد الله وكانت
تابعة لمحافظة الدقهلية، ثم أصبحت تقع فى زمام محافظة دمياط، وتاريخ
مولده هو ١٩٠٥/٢/١م، وقد قضى مرحلة التعليم الابتدائى والثانوى بكلية
غوردون بالخرطوم عاصمة السودان حيث كان والده يعمل بالسودان، أما
الدراسة الجامعية فكانت فى مصر وقد تخرج عام ١٩٣٠م.

يقول الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه قصة عقل: أسدلت
العشرينات أبوابها، وبدأ عقد الثلاثينات وفى أول أعوام (١٩٣٠) تخرج
صاحبنا فى مدرسة المعلمين العليا. وبدأ حياة التدريس ليجعلها أحد خطين
متوازيين سار عليهما أما الخط الثانى فهو الإقبال الشديد على متابعة

الحياة الثقافية متابعة كادت ألا تترك كتابا أو مقالة مما كان يكتبه أعلام الحركة الفكرية والأدبية في مصر، ومعها متابعة أخرى- لم تكن شاملة- لما يصدر في أوروبا- وانجلترا بصفة خاصة- من نتاج ثقافى (ص ١٦).

هذا ما يقوله مفكرنا عن الفترة التي أعقبت مباشرة تخرجه فى مدرسة المعلمين العليا. وليلاحظ القارئ اهتمام مفكرنا بمتابعة أحداث الحركة الفكرية سواء فى مصر أو خارجها. إذ أعتقد من جانبى أن هذه المتابعة إن دللتنا على شئ فإنما تدلنا على فهم الدكتور زكى نجيب محمود لوظيفة المثقف وكيف ينبغى أن تكون، وكم نجد العديد من مقالاته فى كثير من المجلات والصحف طوال نصف قرن تكشف لنا عن اهتمامه برصد كل الظواهر المهمة وتحليلها تحليلا يعد غاية فى الدقة والعمق.

وكانت الفترة منذ تخرجه حتى سفره إلى انجلترا عام ١٩٤٤.

فترة مليئة بالنشاط الفكرى وخاصة ما ارتبط بمجلة الرسالة. ولجنة التأليف والترجمة والنشر. وتأليف العديد من الكتب كقصة الفلسفة اليونانية وقصة الفلسفة الحديثة وقصة الأدب فى العالم، وأيضا تعريب كتاب فنون الأدب.

وقد قضى مفكرنا بانجلترا عدة أعوام للحصول على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة لندن وهى من كبرى الجامعات الإنجليزية العريقة، وذلك فى سبتمبر عام ١٩٤٤م حتى أواخر عام ١٩٤٧م. وقد أثرت دراسته بانجلترا فى تشكيل العديد من وجهات نظره ويتضح ذلك من خلال كثير من كتبه كالمناطق الوضعية وخرافة الميتافيزيقا ونحو فلسفة علمية وحياة الفكر فى العالم الجديد. بل إن إيمانه المبكر بفكرة الحرية قد ظهر فى اختياره موضوع رسالته للدكتوراه وكان موضوعها الجبر الذاتى. وطالما نجد من جانبه ربطا بين الحرية، وبين تيار العصر والحضارة.

يقول الدكتور زكى نجيب محمود، لقد بلغ اهتمامى يومئذ بفكرة الحرية الإيجابية أن جعلتها موضوعا لرسالتى فى الدكتوراه. فموضوع رسالتى هو الجبر الذاتى والمقصود بعبارة الجبر الذاتى هو أن الإنسان فى حرية إرادته مقيد بماضيه هو نفسه على الأقل. كما هو مقيد بعوامل أخرى تشكل الإطار العام الذى يتحرك حراً بين حدوده، ولكنه داخل تلك الحدود نفسها إذا ما فعل فعلا أو قال قولاً فى مستطاعه دائماً أن يبدع ما

هو جديد غير مسبوق إليه. أى أن علوم الدنيا بأسرها لا تستطيع أن تتنبأ على وجه اليقين بما أنا فاعله أو قائله فى اللحظة الزمنية القادمة. فهو فعل جديد أو هو قول جديد. لكنها فى كلتا الحالتين جدة تضيف إلى حصيلة البشرية من أفعال أو أقوال، وليست هى مجرد الجدة كالتى نراها - مثلا - فى تزييط المجانين أو فى شخبطة الأطفال إذا ما وجدوا ورقا وأقلاما (قصة عقل ص ٤٨-٤٩).

وقد عاد الدكتور زكى نجيب محمود إلى مصر وعمل مدرسا للفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة. تلك الكلية التى تفخر دوما بأن مفكرنا كان من الذين قاموا بالتدريس فيها مدرسا فأستاذاً مساعدا ثم أستاذا ولم يشأ أن يتقلد خلال فترة وجوده عضواً بهيئة التدريس بقسم الفلسفة منصبا من المناصب الإدارية، إنه يعتقد باستمرار أن عمله هو الفكر. والفكر أساسا، وكم بين لى أثناء زيارتى له فى منزله مدى التعارض بين الإخلاص للفكر، والحرص على المناصب الإدارية البراقة. لقد كان حريصا منذ عودته إلى مصر فى خريف عام ١٩٤٧ على الدعوة إلى

التشبع بروح الثقافة المعاصرة من جهة. والدعوة إلى التجريبية العلمية من جهة أخرى، إنه يذكر لنا في كتابه قصة عقل (ص ٥٧) أن فكره حين عاد إلى مصر، كان قد تبلور في شعبتين: إحداهما وجوب الأخذ بروح الثقافة الأوروبية المعاصرة، لعلها تنتهي بنا إلى مثل ما انتهت بأصحابها إليه من وضع الإنسان الفرد في مكانة تشبه التقديس. والثانية هي وجوب الدعوة إلى التجريبية العلمية، لأنها إذا كانت مجرد اتجاه فلسفي هناك، فهي بالنسبة للأمة العربية ضرورة. إذ من شأنها أن تضبط اللفظ في مجال التفكير العلمي ضبطا صارما وهو ما أظننا في أشد الحاجة إليه.

وكما كان مفكرنا شعلة نشاط من النادر أن نجد لها مثيلا في حياتنا الثقافية المعاصرة، قبل سفره إلى إنجلترا، كان أيضا هذا حاله بعد عودته منها. لقد سافر في مهمات علمية عديدة إلى كثير من البلدان شرقا وغربا. عمل أستاذا زائرا بأمريكا خلال عامي ١٩٥٣، ١٩٥٤، كما عمل مستشارا ثقافيا بسفارتنا بواشنطن، وسافر إلى الكويت حيث عمل بجامعة أستاذا لمدة خمسة أعوام من عام ١٩٦٨ إلى عام ١٩٧٣، وتمت دعوته

لزيرة أكثر من بلدة عربية من بينها الإمارات العربية المتحدة لإلقاء مجموعة من المحاضرات بجامعةها.

لقد حصل أستاذنا على العديد من الجوائز تكريماً له واعترافاً بدوره الفكرى والثقافى وريادته فى مجال الفكر العربى المعاصر والفلسفى منه على وجه الخصوص. حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٦٠ عن كتابه نحو فلسفة علمية. وحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٧٥. وحصل على جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وهو أول مصرى يحصل على هذه الجائزة. وقد ذكر لى أثناء إحدى مقابلاتنا بمنزله. أن منحه هذه الجائزة يدلنا على أن العربية ثقافة قبل أن تكون سياسة، وكان هذا موضوع مقالة من مقالاته بجريدة الأهرام.

ويمكن القول بأن جميع المهتمين بشئون الثقافة والفكر يسعون من جانبهم إلى التعرف على حقيقة آرائه التى تعد كما قلت ثرية ثراء لا حد له، وفتحت لنا آفاقاً لم نكن ندرى عنها شيئاً. لقد سعيت من جانبى إلى منزله عدة مرات أحاول إقناعه بقبول تعيينه أستاذاً غير متفرغ بقسم

الفلسفة بأداب القاهرة وقد تكرم بتلبية دعوتى وعمت الفرحة كل مكان سواء داخل الجامعة أو خارجها، وذلك بالإضافة إلى رئاسة تحرير مجلة الفكر المعاصر وإشرافه على العديد من المجالات الأخرى، ورئاسته للجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة وعضويته باللجان العلمية والفكرية واشتراكه فى الإعداد لكثير من المؤتمرات الفلسفية ومن بينها مؤتمر عن الفيلسوف العربى ابن رشد بالجزائر، لقد كنت مسرورا غاية السرور باشتراكى معه فى وضع كتيب عن آخر فلاسفة العرب، " ابن رشد" لكى يوزع على الحاضرين أثناء المؤتمر، وكم تضاعف سرورى حين أهديت له كتابى ثورة العقل فى الفلسفة العربية اعترافا بدوره الخلاق والمبدع فى صياغة حياتنا الفكرية.

لقد دعانا زكى نجيب محمود إلى ضرورة التعرف على فكر الغرب والاستفادة منه، وقام من جانبه بترجمة العديد من الكتب ترجمة تعد غاية فى الدقة والأمانة ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر الجزء الأول والجزء الثانى من كتاب تاريخ الفلسفة الغربية للفيلسوف الإنجليزى المعاصر، " برتداند رسل" ومجموعة أجزاء من الموسوعة الضخمة،

قصة الحضارة للمفكر الأمريكي ول ديورانت ، وكتاب المنطق للفيلسوف الأمريكي جون ديوى وسجموعة من محاورات أفلاطون. لقد شملت ترجمته التراث القديم والفكر الحديث والمعاصر أيضا، وهذا يعد من جانبه اعترافا بقيمة الترجمة ودورها فى التنوير تماما كما حدث فى العصر العباسى. وما حدث أيضا فى عصر النهضة الأوروبية.

غير مجد فى ملتى واعتقادى تصور التنوير دون الاشتمام بالترجمة فى جميع المجالات علمية وأدبية وفكرية وفلسفية. إننا إذا أردنا لأنفسنا مواصلة التيار الذى ظهر فى مصر منذ ما يزيد على قرن من الزمان والذى يعد فى جوهره إعلانا عن بداية عصر جديد من عصور مصر الفكرية، فلا مفر من الاتجاه بكل قوتنا نحو الترجمة الدقيقة الواعية. وإنه لمن المؤسف حقا أن نرى دول العالم تتجه بكل قوتها نحو الترجمة والاستفادة من الأفكار الموجودة فى أمم أخرى. فى حين أننا نتغافل عن الترجمة وأهميتها ودورها فى إثراء حياتنا الفكرية وصياغة وجودنا الأدبى والفلسفى.

إن التنوير لا يمكن تصوره إلا من خلال التعرف على أفكار الأمم الأخرى. وقضية الأصالة والمعاصرة لا يمكن تصورهما والبحث فيها إلا بأن نتجه بكل قوتنا نحو الترجمة. والتقدم في جميع المجالات أدبية وعلمية ومادية لا يمكن أن يتم أو يتحقق إلا بأن نعرف أفكار أمم الأرض قاطبة من مشرق الدنيا إلى مغربها. ولا أشك في أن فتح النوافذ حيث الهواء المتجدد النقي يعد أفضل ألف مرة من الهواء الراكد، إن ثقافتنا دون الترجمة ستكون ثقافة مشوهة وعرجاء، ستكون معبرة عن الظلام لا النور. ومن يطلب منا عدم التعرف على أفكار الأمم الأخرى عن طريق الترجمة، إنما يهدف من وراء ذلك إلى أن يظل شبابنا محصوراً في معرفته على الأفكار المسطحة والتي لا نجد فيها عمقا، أي عمق.

لقد نبهنا مفكرنا العملاق زكي نجيب محمود إلى أهمية الترجمة، ولم يكن هذا من جانبه مجرد دعوة نظرية. بل إنه - كما قلت - قد قام فعلا بترجمة العديد من أبحاث الكتب في مجالات شتى فلسفية وغير فلسفية.

بل يمكن القول بأن المتأمل في تحليلات زكى نجيب محمود لثقافة العصر، وتصوره للحضارة والتطوير، إنما يدرك تماما أن الترجمة تعنى التواصل بين الأجيال، تعنى إقامة الجسور بين ثقافة وثقافة أخرى. إن الثقافة فى انتقالها من ماضيها إلى حاضرها وإلى مستقبلها، إذا كان حالها كالجسور التى على أساسها ننتقل من مكان إلى آخر، على أساسها نضمن التواصل بين الأجيال والأفراد فى كل زمان وفى كل مكان. فإن من يدعونا إذن إلى أن ننصرف عن الترجمة، فإن حاله كحال من يدعو إلى هدم الجسور، إنه يريد فصل ما اتصل ، لا وصل ما انقطع.

لقد كان الدكتور زكى نجيب محمود فى دعوته التجديدية حريصا الحرص كله على أن يبين لنا أهمية الاستفادة من أفكار الأمم الأخرى، أى الانفتاح على حضارة الغرب، إننا نجد هذا واضحا سواء فى كتبه الفلسفية أو فى كتبه التى يغلب عليها أنها تعالج موضوعات أدبية، نعم إننا نجد هذا واضحا تمام الوضوح فى كتب عديدة تركها لنا هرمانا الفكرى الشامخ، زكى نجيب محمود ومن بينها كما أشرنا الشرق الفنان وتجديد الفكر العربى والمعقول واللامعقول وحياة الفكر فى العالم الجديد، وبرتداند

رسل، وديفيد هيوم، والمنطق الوضعي، ونحو فلسفة علمية، وجنة العبيط، وشروق من الغرب، وقشور ولباب، ومجتمع جديد أو الكارثة، والثورة على الأبواب، ومن زاوية فلسفية، وفي حياتنا العقلية، وفي فلسفة النقد، وهموم المتقنين، وثقافتنا في مواجهة العصر، قصة نفس، وقصة عقل... إلى آخر تلك الكتب التي نجد فيها كما قلت دعوة إلى الأخذ بأسباب العلم وأسباب الحضارة، وكما دعانا إلى ذلك أيضا في آخر كتبه "حصار السنين".

ونود أن نؤكد من جانبنا على أننا لا نجد تعارضا - كما يتوهم البعض - بين اهتمام زكي نجيب محمود اهتماما بالغا بالدراسات المنطقية على النحو الذي نجده في المنطق الوضعي وخرافة الميتافيزيقا (موقف من الميتافيزيقا) ونحو فلسفة علمية، واهتمامه بتجديد الفكر العربي، ولا أشك في أن اهتمام مفكرنا العملاق بالدراسات المنطقية عند الغربيين قد فتح أمامه الطريق إلى السعي بكل قوة نحو حل مشكلة الأصالة والمعاصرة وتجديد فكرنا العربي.

لقد درس مفكرنا دراسة دقيقة المحاولات التي سبقته. ويمكننا القول بأننا نجد مواقف عديدة حول قضية التراث وصلته بعلوم الغرب وحضارته، فمن المفكرين من يعتمد على الحديث والحديث فقط أى الدعوة إلى المعاصرة فحسب دون أن يأخذ فى اعتباره، الماضى فى تراثنا، ومن هؤلاء سلامة موسى وحسين فوزى ولويس عوض. كما نجد أمثلة لأناس وجدوا أن الصحيح هو التراث، والتراث فقط، ومن بينهم مصطفى صادق الرافعى، وأيضاً نجد مفكرين قد حاولوا المزج بين القديم والجديد، بين التراث والمعاصرة ومن بينهم رفاة الطهطاوى ومحمد عبده وطه حسين وعباس العقاد، وتوفيق الحكيم.

وقد وجد زكى نجيب محمود أن الصحيح إلى حد كبير جداً إنما يتمثل فى هذا الموقف الأخير أى الموقف الذى لا يرفض تراثنا لمجرد أنه قديم، ولا يرفض أيضاً الاعتماد على ثقافة الغرب وحضارة الغرب، إن هذا الموقف يعد واضحاً فى العديد من كتبه، ومن بينها : بذور وجذور، وعربى بين ثقافتين. نقول هذا رغم اتفاقنا مع مفكرنا تارة واختلفنا تارة أخرى، ولكن الاختلاف الذى يعد خاصية من خصائص الفلسفة والتفلسف.

لقد انطلق مفكرنا وبكل ما يملك من وقت وجهد نحو البحث فى مشكلة تجديد الفكر العربى، مشكلة الأصالة والمعاصرة. مشكلة المواكبة بين التراث من جهة وتيار العصر والحضارة من جهة أخرى. لقد أخلص للبحث فى هذه المشكلات إخلاصا لا مثيل له، اهتم بالبحث فى هذه القضايا التى ترتبط كل قضية منها بالأخرى وتقترن بها، أكثر من ربع قرن من الزمان.

نعم لقد استغرق منه البحث فى هذه القضايا أكثر من ثلاثين عاما. لقد أكد لى فى لقاء تم بيننا منذ سنوات على ما سبق أن ذكره فى كتابه، قصة عقل، لقد قال لى إن تفكيره فى المزج بين الثقافة العربية والثقافة الغربية قد بدأ فى عام ١٩٥٦ ثم صاغ الفكرة فى عام ١٩٦٠ وذلك فى كتاب الشرق الفنان، إن هذا الكتاب يعد خطة تفكير ، أى خطة بحث فى المشكلة التى وهب لها عمره، مشكلة الأصالة والمعاصرة وما يدور حولها من البحث فى كيفية تجديد الفكر العربى والبحث فى أفضل الصيغ أو الحلول المناسبة، والبحث أيضا فى كيفية مواكبة تيار العصر، تيار الحضارة، والحضارة الغربية منها على وجه الخصوص.

لقد تميز أستاذنا، أستاذ الجيل، زكي نجيب محمود، بحس نقدي غاية في الدقة والروعة، أيضا حس يجعلنا نقف أمامه في إجلال وإكبار، تماما كما نقف أمام الأهرامات وأبي الهول ولسنا في حاجة إلى القول بأن الحس النقدي هو أهم ما يميز الفكر الفلسفي، أهم ما يعبر عن خصائص الموقف الفلسفي، وكل مفكر يبرز لديه الحس النقدي إنما يعد مفكراً عملاقاً، مفكراً شامخاً، مفكراً يحتل مكانة فريدة بحيث يتميز عن سواه من المفكرين، فأرسطو خالد لمنهجه النقدي، وابن رشد يعد عملاقاً لمنهجه النقدي، وتوما الاكويني يعد على رأس فلاسفة المسيحية في العصر الوسيط للبعد النقدي الذي يميزه عن فلاسفة المسيحية الذين سبقوه، والفيلسوف الألماني كانت إنما تشطر فلسفته، الفلسفة الحديثة إلى شطرين، الفلسفة قبل كانت والفلسفة بعد كانت وذلك لأسباب عديدة أهمها حسه النقدي البارز والذي تجلى في ثلاثيته النقدية: نقد العقل الخالي، نقد العقل العملي، نقد ملكة الحكم، وطه حسين يعد عملاقاً لأننا قلما نجد ظاهرة ثقافية أو اجتماعية أو فكرية إلا ونجده قد تصدى للبحث فيها على أساس اتجاهه النقدي، وزكي نجيب محمود يعد على رأس مفكرينا المعاصرين

لأنه أعلى كلمة العقل فوق كل كلمة، أقام تجديده للفكر العربي على أساس نقدي دقيق، والنقد هو أهم خصائص المجدد، لأن المجدد لا يكون مقلداً أو متابعاً للآخرين مجرد متابعة... إن هذا الحس النقدي موجود فى أكثر كتب زكى نجيب محمود سواء كانت فى مجال الفلسفة أو كانت فى مجال الأدب، وقد أعانه عليه ذكاؤه الخارق، وإطلاعه الجم، وتنظيم وقته تنظيمًا غاية فى الدقة بحيث يكون مخصصاً أساساً للفكر وقضاياها.

إن الحس النقدي التحليلي إذا كان يظهر بكل قوته عند مفكرنا سواء فى كتبه الفلسفية، أو كتبه الأدبية، فإنه يظهر أيضاً بأعظم صورته حين يبحث زكى نجيب محمود فى مجالات الفنون، لقد كتب صفحات عديدة رائعة فى هذه المجالات الفنية، وعلى رأسها ما كتبه فى مؤلفه، أيام فى أمريكا.

ومن الواضح غاية الوضوح إذا حللنا تاريخ الفكر العالمى، أنه توجد صلة وصله وثيقة، بين الإيمان بالبعد النقدي من جهة، والمعارك الفكرية التى يخوضها المؤمن بدور النقد، المؤمن بعدم تقليد أو متابعة الآخرين تقليداً أعمى من جهة أخرى.. ومن هنا نجد أستاذنا يدخل فى

معارك فكرية عديدة .. لقد خاض تلك المعارك متسلحا بالثقافة الغزيرة، متسلحا بالشجاعة، مؤمنا بأفكاره التي أقامها على أساس ثابت وطييد متماسك البنيان، وإذا كان من حق كل إنسان أن يؤمن بالرأى الذى يعتقد بصحته ، إلا أنه ليس من المعقول ولا المنطقى أن يلجأ نفر من أشباه الدارسين وأنصاف المتقفين إلى الهجوم على آراء مفكرنا لمجرد الهجوم، إن هجومهم على هذه الصورة الفجة يكشف لنا عن إن هجومهم إنما يعد جهلا على جهل ولكن أكثرهم لا يعلمون. ماذا يريد هؤلاء الأشباه؟ هل يريدون منا العودة إلى عصور الظلام؟ هل يريدون لنا الانغلاق حول أنفسنا؟ لقد خاض زكى نجيب محمود معاركه الفكرية التي لا حصر لها دفاعا عن طريق النور، دفاعا عن تيار الحضارة بأجلى وأخصب معانيها. دفاعا عن الإنسان وكرامة الإنسان.

ولنقف عند عبارة رائعة نجدها فى كتابه العظيم: قصة عقل (ص ٧٣-٧٤) إنه يقول: إذا أنت أمعنت النظر فى الاتجاهات الفلسفية المعاصرة، ويمكن بلورتها فى أربعة ، وجدت جذرها المشترك هو اتخاذ الإنسان فى حياته الدنيوية هو محور الاهتمام، وانظر على هذا الضوء

إلى تلك الاتجاهات الأربعة: أحدها هو اتجاه الفلسفة التحليلية التي تعنى أكثر ما تعنى بفلسفة العلوم والتي هي الفلسفة السائدة في بريطانيا، فما دامت تصب اهتمامها على التفكير العلمي، فهي بالتالي تقصر ذلك الاهتمام على ما هو ذو صلة بحياة الإنسان هنا على هذه الأرض، وثانيها هو اتجاه الفلسفة البرجماتية الذي له السيادة في الولايات المتحدة الأمريكية وأساسه هو أن الفكرة تعد صحيحة إذا كانت نتائجها نافعة للإنسان، فليس المهم هو أصل الفكرة من أين جاءت وكيف جاءت؟ بل المهم هو ماذا عساها أن تثمر للإنسان من نتائج تنفعه في حياته، وثالثها هو اتجاه الفلسفة الوجودية في غربى أوروبا، ومدار تلك الفلسفة حرية الإنسان في القرار الذى يتخذه لنفسه ليكون بعد ذلك مسئولاً عنه مسئولية خلقية، ورابعها هو اتجاه الفلسفة المادية الجدلية السائدة في شرقى أوروبا، ومحورها هو أن الحياة الثقافية كلها بما فيها القيم الأخلاقية والجمالية، إنما تولدت عن الحياة الاقتصادية من زراعة أو تجارة وصناعة، فإذا غيرت من أسس الحياة الاقتصادية المادية، تغيرت بالتالى دنيا الثقافة، وإذن ففي

مقدورنا أن نشكل العلاقات الاقتصادية تشكيلا ينتهي بنا إلى إقامة حياة إنسانية تصون للإنسان حقوقه.

ويبين لنا مفكرنا أن الفكر في الغرب إذا كان اتجاهه وهمه الأول هو صون الإنسان من العوامل التي كانت تطحنه طحنا وتقهره قهرا، فإنه من الضروري إذن العمل على نشر مثل هذا الفكر في بلادنا وذلك حتى نتمكن من توفير وتقديس مكانة الإنسان وكرامته، بل لا مفر من قبول النتائج الفرعية التي تنبثق في تلك الجذور ومنها ما هو خاص بالنظرة العلمية الواقعية إلى الأمور، مادامت أمورا لا صلة لها بمشاعر الإنسان الخاصة، ومن هنا جاءت دعوة زكي نجيب محمود إلى الأخذ الصارم بالنظرة العلمية التجريبية مفرقا في حياة الإنسان بين مجالين،: مجال التفكير العلمي بكل تفريعاته، ومجال الحياة الوجدانية بشتى جوانبها، فما يصلح لذلك لا يصلح لهذا، فلكل منهما مواقف ولكل منهما معايير للرفض أو القبول.

ويقيني أن المهاجمين لفكر زكي نجيب محمود، واتجاه زكي نجيب محمود، إذا كانوا قد وضعوا في اعتبارهم هذه التفرقة عند مفكرنا

لجنبوا أنفسهم الهجوم عن جهل أو عن تجاهل، وكم أساء الكثيرون إلى العديد من أفكار مفكرنا وخاصة تلك التي قال بها في كتابه: خرافة الميتافيزيقا ولم يضعوا في اعتبارهم أنهم أخطأوا نتيجة لتسرعهم في الهجوم دون مبررات معقولة يستندون إليها، إنهم لم يضعوا في اعتبارهم تأكيدات مفكرنا المستمرة على هذا المعنى، وهذه التفرقة، يقول مفكرنا (قصة عقل ص ١٤٠): الإيمان بضرورة اللجوء إلى العقل وإلى العلم الذي هو في الحقيقة تجسيد للعقل في رسم السبل الناجحة، يتضمن إيماننا بقدرة العقل الإنساني على الاضطلاع بما خلقه الله من أجله، لكن هل هذه الوقفة هي التي لها السيادة في حياتنا؟ كلا، فنحن نفاخر سائر الدنيا بأننا أصحاب عقول عامرة بوجدانها، لا فرق في ذلك بين أن يكون الموضوع المعروض للمعالجة مما تتفع أو لا تتفع فيها القلوب ووجدانها، ومن ثم كانت دعوتى التي ما فتئت أكررها، بوجود التفرقة الواضحة بين مجالين: مجال لا يصلح له إلا العقل بكل رصانة، ومجال آخر من حق المشاعر أن تشتعل فيه ما شاعت لها حرارتها.

إن مفكرنا لم يقف في دراسته لقضية التجديد، وخاصة من خلال كتابيه " تجديد الفكر العربى"، والمعقول واللامعقول في تراثنا الفكرى" عند التراث لمجرد إنه تراث، كما أنه لم يرفض التراث جملة وتفصيلا، نعم لم يرفض التراث من أساسه كما يزعم نفر من المتسرعين وأشباه الدارسين الذين حشروا أنفسهم بين الدارسين للفكر الفلسفى، والفكر منهم براء، وليرجع القارئ إلى القسمين اللذين يتألف منهما كتابه الرائع " تجديد الفكر العربى" وخاصة الفصل التاسع من القسم الثانى وموضوعه " قيم باقية من تراثنا"، وأيضا فليرجع إلى القسمين اللذين يتألف منهما كتابه " المعقول واللامعقول" إنه يضرب أمثلة من التراث، ولا يضرب أمثلة فى الهواء الفارغ، إنه يدرس التراث دراسة عميقة وبعد ذلك يرتضى لنفسه أن يقف منه موقف المؤيد لبعض ما فيه من قيم تتفق مع العقل، وموقف المعارض لما فيه من قيم تعبر عن شطحات اللاعقل.

إن أبرز ما يميز مفكرنا العملاق، إنما هو حسه النقدى، والذى ظهر بأجلى صورته فى موقفه من الفكر العربى وكيف توجه مواكبه بين هذا الفكر وبين تيار العصر والحضارة.

إنه يقول في كتابه قصة عقل (ص ٢١٧): لقد قرأت ما قرأته (التراث العربى) ليكون حكمى عليه قائما على معايير عصرنا نحن، من حيث انتفاع الناس به وعدم انتفاعهم، إننى قرأت ما قرأته من التراث العربى قراءة مثقف يعيش فى القرن العشرين، ويتنفس فى مناخ حضارى له خصائصه ومقوماته، ويريد أن يرى الحبل موصولا بينه وبين أسلافه، لكنه فى الوقت نفسه يشعر بأنه ما كل ما عاشه أولئك الأسلاف صالح له هو ولزمانه ولكنه لابد بحكم طبائع الأمور ذاتها، أن يكون فى حياة الأسلاف كذلك ما يجوز - بل ما يجب - أن يبقى لبقى الرباط.

إن المعيار الذى على أساسه نقبل موقفا من التراث ونرفض موقفا آخر، إنما يتمثل فى العقل وأحكامه، كما يتمثل فى مدى ملاءمته لروح العصر وحضارته.

لقد أخلص مفكرنا العملاق للبحث فى قضية الأصالة والمعاصرة إخلاصا لا حد له أن يقول: إن قضية الجمع بين أصالتنا وضرورة معاشتنا لعصرنا ربما كانت أهم ما تعرضت له من اهتمامات بالتفكير

والكتابة، لقد أصبحت على يقين من أن هذه المسألة هي أم المسائل الثقافية جميعاً، إنها القضية التي يصح أن نقول حيالها قولة هاملت في أزمتها النفسية: أن أكون أو لا أكون ذلك هو السؤال. (قصة عقل ص ٢٢٢).

هذا هو مفكرنا العملاق أستاذاً ومفكراً وأديباً. إنك لن تستطيع فهم لب فكره، لب مذهبه، إلا إذا قرأت كل ما كتب سطراً سطراً بل كلمة كلمة. لقد دخل تاريخنا الفكري والثقافي المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها. لقد شق طريقه وسط الأشواك والصخور، وترك لنا ثروة فكرية فلسفية أدبية غاية في العمق. ولن يستطيع مفكر أو أديب أن يغفل أو يتغافل عن هذه الثروة التي تعد من أغلى كنوز العالم، إنها تعد كنزاً فكرياً أبدعه عقل مفكر جبار، أبدعه قلم يعلم تماماً أثر الكلمة المكتوبة وخطرها. نعم إنه يعد عظيماً بين العظماء، عملاقاً بين العمالقة. تبدد كلماته وأقواله ظلام الجهل سعياً وراء نور المعرفة، نور العقل، نور الضياء الذي يهدينا في حياتنا، وإذا اختلف البعض حول فكره وآرائه. فإن هذا الخلاف في حد ذاته يدلنا على أن أفكاره تعد حية وليست أفكاراً ميتة،

إن الأفكار الحية دون غيرها هي التي توجب الصراع حولها لأنها أفكار شامخة، أفكار تؤدي إلى إيقاظ العقول حولها. أفكار المسافة بينها وبين التقليد والمتابعة أكبر من المسافة أو الفرق بين الإنس والجن، إنه رائدنا ومفكرنا العظيم، إنه زكي نجيب محمود، الذي تعد كتاباته كلها دعوة إلى التمسك بتيار العصر والحضارة، تيار التجديد، تيار العقلانية، تيار الفكر العلمي، لقد درس من خلال هذا التيار، القضايا الفكرية في حياتنا المعاصرة، وظل مخلصا في دراستها حتى وفاته كما أشرنا في التاسع من سبتمبر عام ١٩٩٣.

أقول هذا ولابد من القول به؛ لأنني عرفت الرجل عن قرب وقرأت كل ما كتب، وعشت مع ترجماته لكتب لا حصر لها وتعد غاية في الأهمية وحللت كل أبعاد معاركه الفلسفية والأدبية والفكرية. وبحيث أقول وبعد أن دعانا الرجل من خلال كل ما كتب إلى التركيز على المستقبل، أي النظر إلى الأمام وليس إلى الخلف، فالنظر إلى الأمام أهم خصائص المجدد، في حين أن الرجوع إلى الوراء هو ما نجده عند المقلد

والذى يريد أن يقف عند التراث القديم لمجرد أنه تراث، دون أن يضع فى اعتباره أن التراث يعد مليئاً بالآلاف الأخطاء ؛ لأنه إنتاج بشر غير معصومين من الخطأ، إنه بشر مثلى ومثلك أيها القارئ العزيز؛ ولكن ماذا نفعل لأناس يجدون سعادتهم فى حياة الكهوف والمغارات كما يفعل الخفافيش أنصار الظلام والأماكن المهجورة.

وفى سبيل سعى مفكرنا نحو الرؤية المستقبلية التتويرية، نجده يخوض العديد من المعارك الفكرية ومن بينها معركة العلمانية، ومعركة الحجاب ، ومعركة أخلاق القرية، ومعركة خرافة الميتافيزيقا ، والأصالة والمعاصرة، والتطرف الدينى والمناقشات البيزنطية، وحقيقة تدريس الفلسفة فى مدارسنا وجامعاتنا... إلى آخر المعارك الفكرية والتى تكشف لنا عن عقلية رائدة، عقلية مستتيرة، قل أن نجد لها نظيراً على امتداد تاريخنا الفكرى العربى المعاصر.

وكم دعانا مفكرنا العملاق فى سبيل السعى نحو الرؤية المستقبلية التى تقوم على التتوير، إلى أن ننظر بعقولنا، وإلى أن ننظر بعين العصر

حين دراسة تراث الأقدمين. لقد ذهب في كتابه " المعقول واللامعقول " إلى أننا نعد أحراراً إذا اخترنا من التراث العربى المعقول وحده، لأن المعقول وليس اللامعقول هو الذى يجاوز حدود زمانه ومكانه، فما قد قبله العقل يوماً، فإنه يقبله كل يوم، وأما ما أراضى اللاعقل فينا يوماً، فقد لا يرضيه حين تتغير الظروف.

إن وصل الحاضر بالماضى - فيما يرى مفكرنا - لا يتحقق إلا عن طريق الجانب العاقل وإذا كنا نجد نوعين للكتابة فى الماضى: إحداهما أن ينظر المؤرخ للعصر الذى يؤرخ له بأعين أبنائه ومن خلال ظروفه، والأخرى أن ينظر إليه بعين عصره فقد أختار أستاذنا - فيما يقول باستمرار - الطريقة الثانية فى النظر إلى تراث الأقدمين، وهذا قد يساعد على إيجاد رؤية مستقبلية تنويرية.

دعانا الدكتور زكى نجيب إلى فتح النوافذ على الفكر الغربى وبحيث نمزج بينه وبين فكرنا العربى، وعلى وجه التحديد المعقول منه. إن عدم فتح النوافذ يؤدى إلى جمود الفكر .. يؤدى إلى الظلام وبئس المصير، لقد خاض عدة معارك حول ما يطلق عليه "الغزو الفكرى" ويبين

لنا أنه لا يوجد ما يسمى بالغزو الفكرى؛ بل إن الفرد منا إذا هاجم الحضارة الغربية فإن سلوكه يفضح أقواله . فليس بالإمكان أن نستغنى عن منجزات الحضارة الغربية وهل يصح أن أهاجم الحضارة من خلال ميكرفون، والميكرفون من ثمار الحضارة؟ هل يصح أن أهاجم الحضارة من خلال صفحات كتاب مطبوع، والمطبوعة ثمرة من ثمرات الحضارة؟ وهكذا إلى آخر الأمثلة التى تبين لنا انفتاح الدكتور زكى نجيب على طريق العلم، طريق الحضارة ، طريق التنوير. وكم قارن بين حركة الترجمة فى العصر العباسى، وبين ما فعله رفاة الطهطاوى فى مجال الترجمة والاهتمام بها.

واهتمام رائدنا زكى نجيب بالفكر العربى، يعد اهتماماً لا حد له . أقول هذا وأؤكد على القول به وذلك رداً من جانبى على أناس من أشباه الدارسين، والذين يزعمون أن اهتمامه قد جاء عارضاً ولم يكن أصيلاً. لقد كتب عن جابر بن حيان منذ ما يقرب من نصف قرن من الزمان. كتب عن الشرق الفنان كما أشرنا وكتب عشرات الكتب فى مجال فكرنا

العربي ، الأدبي منه والفلسفي، وذلك خلال أكثر من ثلاثين عاماً. فهل نقول بعد ذلك إن اهتمامه جاء عارضا؟ كلا ثم كلا.

لقد ظل الرجل طوال حياته الفكرية مدافعاً عن الرؤية المستقبلية وكتب آلاف الصفحات في هذه المجالات، ومن بينها وعلى سبيل المثال لا الحصر: المنطق الوضعي، ونحو فلسفة علمية، وشروق من الغرب، وقشور ولباب، والثورة على الأبواب. وفي مجال الفكر العربي: تجديد الفكر العربي، والمعقول واللامعقول، وثقافتنا في مواجهة العصر. أليست هذه الكتب وعشرات أخرى من كتبه تعد دستوراً لنا نحن العرب، إذا أردنا تجاوز الماضي والحاضر، وأردنا البحث عن مستقبل أكثر إشراقاً وضياء؟ نعم ثم نعم. إن واجبنا المقدس ترك الظلام وبحيث ننشد النور والضياء في كل زمان وكل مكان.

ويرى زكي نجيب محمود " أن ثقافة الفرد أو ثقافة الشعب في مجموعه لم تخلق للزينة والزخرف والمباهاة والتفاخر، وإنما لكي تكون أداة فعل حقيقي على أرض الواقع وتحت سمائه. إنه الفعل الذي يمهد السبيل نحو الصحة والقوة والعلم والإبداع. فليس المهم في الحياة الثقافية

أن نقول: هذه ثقافتنا وتلك ثقافة الغرباء، وإنما المهم هو أن نقول هذا عنصر ضعيف في بنائنا الثقافي لا يؤدي بنا إلى عزة فلنستبدل به ذلك العنصر لأنه أفعل أثراً. ومن الواضح أن الدكتور زكي نجيب محمود ينادى بالربط بين العلم والعمل، بين النظر والسلوك. وهذا يعد شيئاً متوقفاً إذ أنه يضع يديه على أسباب ضعف الأمة العربية، كما أنه أيضاً يعد متأثراً بالثقافة الإنجليزية والثقافة الأمريكية البرجماتية.

إن الفكر في الغرب إذا كان اتجاهه الأول هو صون الإنسان من العوامل التي كانت تطحنه وتقهره قهراً، فإنه من الضروري إذن العمل على إيجاد مثل هذا الفكر في بلادنا؛ وذلك حتى نتمكن من توفير وتقديس مكانة الإنسان وكرامته، بل لا مفر من قبول النتائج الفرعية التي تنبثق من تلك الجذور ومنها ما هو خاص بالنظرة العلمية الواقعية إلى الأمور مادامت لا صلة لها بمشاعر الإنسان الخاصة. ومن هنا جاءت دعوة زكي نجيب محمود إلى الأخذ الصارم بالنظرية العلمية التجريبية مفرقاً في حياة الإنسان بين مجالين: مجال التفكير العلمي بكل تفريعاته ومجال الحياة الوجدانية بشتى جوانبها، فما يصلح لذلك لا يصلح لهذا. فكل منهما

مواقف ولكل منهما معايير للرفض أو القبول، وهذا كله فيما نرى إنما جاء من منطلق رؤية مستقبلية تقوم على النور والتنوير.

لقد أدرك الرجل بثاقب نظره ومن منطلق إيمانه بالرؤية المستقبلية التنويرية أنه ليس من المفيد إطلاقاً لأمتنا العربية الوقوف عند التراث لمجرد أنه تراث، والبكاء على الأطلال؛ لأن التراث يعد نتاجاً لأفراد مثلى ومثلك أيها القارئ العزيز. والبشر ليسوا كالقديسين. إنهم معرضون للخطأ في كل زمان وكل مكان وبحثوا في قضايا ومشكلات عفا عليها الزمن وأصبح بعضها غير مناسب إطلاقاً لعصرنا الذي نحياه ولمستقبلنا الذي ننشده وبحيث يكون أفضل من الماضي ومن الحاضر أيضاً. بل نقول من جانبنا إن التراث الذي يحلوا للبعض إقامة هالات المجد حوله، نجد فيه كما من الأخطاء لا أكون مبالغاً إذا قلت إن عددها يفوق عدد سكان الدول العربية من مشرقها إلى مغربها.

غير مجد في ملتي واعتقادي إهمال أفكار زكي نجيب. لقد قال بما قال به من منطلق رؤية تنويرية مستقبلية تريد لمصر التقدم دوماً، وتريد للعرب أن يصيروا إلى حالة أفضل من حالتهم في الماضي وحالتهم

فى الحاضر. لقد قال زكى نجيب فى مقالة نشرت بالأهرام منذ زمان طويل إن العبرة بالتكنولوجيا وليس بالكلامولوجيا. والتكنولوجيا نجدها فى الغرب بصفة خاصة، أما عندنا نحن العرب، فنجد السائد هو الكلامولوجيا، وذلك حين يتكلمون ويسرفون فى الكلام حول قضايا لفظية ومشكلات زائفة خادعة، ويتكلمون فى الخرافة أكثر بكثير جداً فى كلامهم عن العلم وتطبيقاته التكنولوجية.

لقد أشرنا أكثر من مرة إلى إيمانه بأهمية العلم. ولنقرأ ما يقوله فى السطور الأولى من كتابه المنطق الوضعى. أنا مؤمن بالعلم، كافر بهذا اللغو الذى لا يجدى على أصحابه ولا على الناس شيئاً. وعندى أن الأمة تأخذ بنصيب من المدنية يكثر أو يقل بمقدار ما تأخذ بنصيب من العلم ومنهجه.

ومن النادر أن نجد مفكراً عربياً معاصراً اهتم بالقضية الكبرى، قضية الحوار بين الحضارات، مثل ما نجده عند هرم ثقافتنا العربية، وعملاق الفكر العربى المعاصر، زكى نجيب محمود فإن من الواجب علينا أن نشير إلى نماذج من رؤيته فى مجال حوار الحضارات.

لقد كان موضوع الحوار بين الحضارات، أبرز الموضوعات التي كانت تشغل فكر رائدنا العملاق. ومن المؤسف أن أشباه الدارسين لفكره وممن يقفون عند السطح ولا ينفذون إلى الجوهر والأساس، يدفعهم الكسل العقلي إلى الوقوف عند كتاب تجديد الفكر العربى لزكى نجيب محمود، ولا يضعون فى الاعتبار أن اهتمام زكى نجيب بفكرنا العربى قد بدأ منذ السنوات الأولى لكتابه الأدبية والفلسفية والعلمية. ألم تكن أول مقالة كتبها. هى مقالة بعنوان: هجرة الروح ألم يكن كتابه عن جابر بن حيان سابقا فى الزمان على كتابه: تجديد الفكر العربى. ثم من الذى قال إن هذا الكتاب هو الكتاب الوحيد فى مشروعه الفكرى والثقافى كلا ثم كلا أيها السادة القراء. أن من يقولون بذلك، يعد قولهم نوعا من التزوير الفكرى. لأنهم لم يفهموا سطرا واحدا فى كتب كثيرة لم تدخل فى صميم التجديد والحوار والعلم والعقلانية ومن أمثلتها وعلى سبيل المثال لا الحصر: بذور وجدور. والشرق الفنان والذى نال إعجاب توفيق الحكيم ، وعربى بن ثقافتين، وشروق من الغرب، ومجتمع جديد أو الكارثة... الخ.

بل وأن المصيبة الكبرى والكارثة العظمى التي نجدها عند هذا الفريق من أشباه الدارسين ومتخلفي العقول، أن آخر كتبه، وهو كتاب حصاد السنين. يعد من أبرز كتبه في مجال التأكيد على الحوار بين الحضارات وضرورة الاستفادة من فكر الغرب. نقول هذا ولا بد من القول لأننا مازلنا نجد على أرضنا الثقافية من يفسد فيها، وإن كان أكثرهم لا يعلمون. بل إن مفكرنا الكبير زكي نجيب في العديد من كتبه التي أورد فيها سيره حياته الفكرية، بالإضافة إلى حصاد السنين. ونعني بها كتابه قصة نفس، وكتابه قصة عقل. كان من خلالها مهموما بالبحث في كل جوانب القضية الكبرى. قضية أن أكون أو لا أكون. قضية الحوار والتواصل بين الحضارات، ولكن ماذا نفعل حيال أناس يقفون عند ظاهر السطور. لأنهم لا يملكون القدرة على النفاذ إلى ما وراء السطور. يقفون عند السطح. لأنهم لا يملكون قدره على الدخول إلى أعماق فكر زكي نجيب محمود، وما أعظمه من فكر ولكن ماذا نفعل بالنسبة لأناس تحسبهم أساتذة وما هم بأساتذة، بل أشباه أساتذة، وأشباه باحثين.

لقد دعانا زكى نجيب محمود من منطلق إيمانه بحوار الحضارات إلى ضرورة التعرف على فكر الغرب والاستفادة منه، وقام من جانبه بترجمة العديد من الكتب ترجمه تعد غاية في الدقة والأمانة ومن بينها - على سبيل المثال لا الحصر الجزء الأول والثانى من كتاب تاريخ الفلسفة الغربية للفيلسوف الإنجليزى المعاصر برتداند رسل ومجموعة أجزاء من الموسوعة الضخمة، قصة الحضارة للمفكر الأمريكى ول ديورانت. وكتاب المنطق للفيلسوف الأمريكى جون ديوى. ومجموعة من محاورات أفلاطون، لقد شملت ترجمة التراث القديم والفكر الحديث والمعاصر أيضا. وهذا يعد من جانبه اعترافا بقيمة الترجمة ودورها فى التنوير تماما كما حدث فى العصر العباسى. وما حدث أيضا فى عصر النهضة الأوربية.

كان الدكتور زكى نجيب محمود فى دعوته إلى حوار الحضارات حريصا الحرص كله على أن يبين لنا أهمية الاستفادة من أفكار الأمم الأخرى، أى الانفتاح على حضارة الغرب. إننا نجد ذلك واضحا سواء فى

كتبه الفلسفية والكتب التي يغلب عليها إنها تعالج موضوعات أدبية، نعم
إننا نجد هذا واضحا تمام الوضوح في كتب عديدة تركها لنا هرمنا
الفكرى الشامخ، زكى نجيب محمود ومن بينها: الشرق الفنان، وتجديد
الفكر العربى، والمعقول واللامعقول، وحياة الفكر فى العالم الجديد،
وبرتداند رسل، وديفيد هيوم، والمنطق الوضعى، ونحو فلسفة علمية،
وجنة العبيط، وشروق من الغرب، وقشور ولباب، ومجتمع جديد أو
الكارثة، والثورة على الأبواب، ومن زاوية فلسفية، وفى حياتنا العقلية
وفى فلسفة النقد، وهموم المثقفين، وثقافتنا فى مواجهة العصر، وقصة
نفس، وقصة عقل... إلى آخر تلك الكتب التى نجد فيها كما قلت دعوة
إلى الأخذ بأسباب العلم وأسباب الحضارة كما دعانا إلى ذلك أيضا فى
آخر كتبه حصاد السنين... إن هذه الكتب وغيرها من مقالات ودراسات
تقوم على إيمانه بحوار الحضارات لقد انطلق مفكرنا وبكل ما يملك من
وقت وجهد نحو البحث فى مشكلة حوار الحضارات مشكلة الحوار وليس
الصدام بين الحضارات . لقد أخلص للبحث فى هذه الموضوعات إخلاصا

لا مثيل له، اهتم بالبحث فى هذه القضايا التى ترتبط كل قضية بالأخرى وتقترن بها، أكثر من أربعين عاماً. ولقد أكد لى فى لقاء تم بيننا بمنزله قبل رحيله منذ سنوات على ما سبق أن ذكره فى كتابه، قصة عقل، إن تفكيره فى المزج بين الثقافة العربية والثقافة الغربية وذلك لى يقيم حواراً بين الحضارات قد بدأ فى عام ١٩٥٦، ثم صاغ الفكرة فى عام ١٩٦٠ وذلك فى كتاب الشرق الفنان. إن هذا الكتاب يعد خطة تفكير أى خطة بحث فى المشكلة التى وهب لها عمره مشكلة الأصالة والمعاصرة وما يدور حولها من البحث فى كيفية تجديد الفكر العربى والبحث فى أفضل الصيغ أو الحلول المناسبة، والبحث أيضاً فى كيفية مواكبة تيار الحضارة، والحضارة الغربية منها على وجه الخصوص، وذلك لى يتم الحوار بين الحضارات.

هذا هو مفكرنا العملاق أستاذاً ومفكراً وأديباً نقول هذا وبصرف النظر عن اتفاقنا من جانبنا معه فى الكثير واختلافنا معه فى القليل أنك لن تستطيع فهم لب فكره ولب مذهبه حول حوار الحضارات إلا إذا قرأت كل

ما كتب سطرًا سطرًا بل كلمة كلمة لقد دخل تاريخنا الفكرى والثقافى المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها.

لقد شق طريقه وسط الأشواك والصخور، وترك لنا ثروة فكرية فلسفية أدبية غاية فى العمق ولن يستطيع مفكر أو أديب أن يغفل أو يتغافل عن هذه الثروة إنها تعد كنزا فكريا أبدعه عقل مفكر جبار سعيًا وراء نور الضياء الذى يهدينا فى حياتنا. إن أفكاره تعد حية وليست أفكارا ميتة والأفكار الحية دون غيرها هى التى توجب الصراع حولها لأنها أفكار شامخة أفكار تؤدى إلى إيقاظ العقول حولها أفكار المسافة بينها وبين التقليد والمتابعة أكبر من المسافة أو الفرق بين الإنسان والجن أنه رائدنا ومفكرنا العظيم إنه زكى نجيب محمود الذى تعد كتاباته كلها دعوة إلى التمسك بتيار العصر والحضارة تيار التجديد تيار العقلانية إنها أفكار تدعو إلى نور الحياة وبحيث تكون بعيدة تماما عن ظلام العدم وما يرتبط بالظلام من الصعود إلى الهاوية والعياذ بالله إن أفكاره حول ضرورة الحوار بين الحضارات يجب أن نضعها فى اعتبارنا إذا أردنا تصور

إيديولوجية عربية تقوم على رفض كل الأفكار الزائفة مثل القول
بالتعارض بين التقدم العلمى والأخلاق والهجوم على الحضارة الأوروبية
وإغلاق النوافذ أمام الحضارات الأخرى نعم إنها أفكار زائفة كشف عن
فسادها مفكرنا الراحل زكى نجيب محمود.

الفصل الثالث

نماذج من أفكار الرجل من خلال بعض مؤلفاته

عربي بين ثقافتين

إذا كان مفكرنا العملاق قد دعانا إلى أن ننظر بعقولنا، وأن ننظر بعين العصر حين دراسة تراث الأقدمين فإننا نجد ذلك في العديد من كتبه. لقد ذهب في كتابه المعقول واللامعقول إلى أننا نعد أحراراً إذا اخترنا من التراث العربي المعقول وحده، لأن المعقول وليس اللامعقول هو الذي يجاوز حدود زمانه ومكانه، فما قد قبله العقل يوماً، فإنه يقبله كل يوم، وأما ما أَرْضَى اللعقل فينا يوماً، فقد لا يرضيه حين تتغير الظروف.

إن وصل الحاضر بالماضي - فيما يرى مفكرنا - لا يتحقق إلا عن طريق الجانب العاقل وإذا كنا نجد طريقتين للكتابة في الماضي: إحداهما أن ينظر المؤرخ للعصر الذي يؤرخ له بأعين أبنائه ومن خلال

ظروفه، والأخرى أن ينظر إليه بعين عصره، فقد اختار أستاذنا - فيما يقول باستمرار - الطريقة الثانية في النظر إلى تراث الأقدمين.

ويدعونا الدكتور زكي نجيب إلى فتح النوافذ على الفكر الغربي وبحيث نمزج بينه وبين فكرنا العربي، وعلى وجه التجديد المعقول منه. إن عدم فتح النوافذ يؤدي إلى جمود الفكر، يؤدي إلى الظلام وبئس المصير. لقد خاض عدة معارك حول ما يطلق عليه " الغزو الفكري " وبين لنا أنه لا يوجد ما يسمى بالغزو الفكري، بل إن الفرد منا إذا هاجم الحضارة الغربية، فإن سلوكه يفضح أقواله. فليس بالإمكان أن نستغنى عن منجزات الحضارة الغربية، وهل يصح أن أهاجم الحضارة من خلال ميكرفون، والميكرفون من ثمار الحضارة ؟ هل يصح أن أهاجم الحضارة من خلال صفحات كتاب مطبوع، والمطبوعة ثمرة من ثمرات الحضارة؟ وهكذا إلى آخر الأمثلة التي تبين لنا انفتاح الدكتور زكي نجيب على طريق العلم، طريق الحضارة، طريق التنوير. وكم قارن بين حركة الترجمة في العصر العباسي، وبين ما فعله رفاة الطهطاوي في مجال الترجمة والاهتمام بها.

واهتمام رائدنا زكى نجيب بالفكر العربى، يعد اهتماماً لا حد له. أقول هذا وأؤكد على القول به وذلك رداً من جانبى على أناس من أشباه الدارسين، والذين يزعمون أن اهتمامه قد جاء عارضاً ولم يكن أصيلاً. لقد كتب عن جابر بن حيان منذ ما يقرب من ربع قرن من الزمان. كتب عن الشرق الفناز. كتب عشرات الكتب فى مجال فكرنا العربى، الأدبى منه والفلسفى، وذلك خلال أكثر من ثلاثين عاماً. فهل نقول بعد ذلك إن اهتمامه جاء عارضاً؟ كلا ثم كلا. وأقول باستمرار: إننا إذا كنا نجد أناساً من أشباه المثقفين ومن ذوى الثقافة السطحية، يحلو لهم الهجوم على بعض أفكار رائد فكرنا العربى زكى نجيب محمود وبحيث يسيئون فهم أفكاره، فإننى أقول لهم: لكم دينكم ولنا دين. قلنا إن زكى نجيب محمود قد جعل قضيته الكبرى- وكما أشار توفيق الحكيم بحق- هى قضية الأصالة والمعاصرة، والدعوة إلى المعقول وتحديد أسباب رفض اللامعقول .

ونجد تأكيداً على هذه المعانى كلها فى كتابه "عربى بين ثقافتين".

إن هذا الكتاب يثير العديد من القضايا البالغة الأهمية والتي لا يمكن

الفصل بينها وبين القضايا الحيوية التي أثارها في العديد من كتبه وخاصة " تجديد الفكر العربى"، و " المعقول واللامعقول"، و"ثقافتنا فى مواجهة العصر".

ومن القضايا التى يثيرها كتابه الأخير "عربى بين ثقافتين"، "أين نضع المبادئ"، "والعروبة موقف"، "وهذا هو عصرنا"، و " العربى بين ماضيه وحاضره"، "ومن إشعاعات التوحيد"، "ومعنى جمود الفكر"، "وصورة الإنسان"، "والثقافة العربية إلى أين؟... إلى آخر القضايا والمشكلات الحيوية التى يثيرها هذا الكتاب النفيس والذى تزيد صفحاته عن أربعمئة صفحة.

ويقول المؤلف فى الصفحات الأولى من كتابه: إن هذا الكتاب الذى أقدمه بين يدى القارئ قد احتوى على جهد مكثف فى مجال إيجاد صيغة ثقافية للمواطن العربى الجديد، يصطبغ بلون خاص إذا قورن بغيره من الجهود السابقة، إذ اختار المؤلف مجموعة من الزوايا التى تصلح للإطلاع منها على مواضع اختلاف جذرية بين الثقافة العربية والثقافة الغربية أدت إلى مذاقين مختلفين لحياة الإنسان. وذلك تمهيداً للنظر من

جديد نظرة فاحصة، فربما تبين أن ما حسبناه اختلافا يضرب إلى الجذور ويسنحيل على المصالحة والتوفيق، إنما هو في حقيقته أكثر مرونة مما حسبنا، بحيث يصبح في حدود المستطاع أن نقترح صيغة تجمع الطرفين دون تضحية بما هو أساسى وجوهري في كل من الطرفين.

ويبين لنا رائدنا الكبير في الفصل الأول من كتابه، أن ثقافة الفرد أو ثقافة الشعب في مجموعه لم تخلق للزينة والزخرف والمباهاة والتفاخر، وإنما لكي تكون أداة فعل حقيقى على أرض الواقع وتحت سمائه. إنه الفعل الذى يمهّد السبيل نحو الصحة والقوة والعلم والإبداع. فليس المهم في الحياة الثقافية أن نقول: هذه ثقافتنا وتلك ثقافة الغرباء، وإنما المهم هو أن نقول هذا عنصر ضعيف في بنائنا الثقافى لا يؤدى بنا إلى عزة فلنستبدل به ذلك العنصر لأنه أفعل أثراً.

ومن الواضح أن الدكتور زكى نجيب محمود ينادى بالربط بين العلم والعمل، بين النظر والسلوك. وهذا يعد شيئاً متوقعاً إذ إنه يضع يديه على أسباب ضعف الأمة العربية، كما أنه أيضا يعد متأثراً بالثقافة الإنجليزية والثقافة الأمريكية البرجماتية.

ويحل مفكرنا الكبير فكرة المبادئ تحليلاً دقيقاً. وهذا أيضاً يعد شيئاً متوقِعاً وخاصة أن مفكرنا زكي نجيب محمود قد كتب آلاف الصفحات عن التحليل المنطقي والفلسفي وإنه يضرب مثلاً بلفظ الجمال وكيف يستخدمه الناس في حياتهم ويحكي لنا عن قراءته لكتاب الجمال والجلال لابن عربي. ويبين لنا أنه إذا كان مفهوماً لنا أن نصف بالجمال عادة حسناء وزهرة وبستانا، فإن الذي يوصف بالجلال من حيث هو مصطلح فلسفي في هذا المجال، البحر والصحراء والجبل والمبنى الضخم ذو الأعمدة الشامخة، فبينما تثير موضوعات الجمال مشاعر الرقة والتأسق، فإن ما تثيره موضوعات الجلال هو الشعور بالعظمة والقوة واللانهاية.

ويأخذ مؤلفنا في تحليل فكرة ابن عربي وتمييزه بين الجمال والجلال وكيف تجيء آيات الجمال وآيات الجلال في القرآن الكريم متعاقبتين فواحدة من هذه تتبعا واحدة من تلك، ويبين لنا كيف تتفاوت درجة الدقة في تحديد المعنى بين قيمة الحق في مجال المعرفة والعلم، وقيمة الجمال في مجال الجانب الوجداني من حياة الإنسان، فبينما نجد

معايير الصدق العلمى على درجة من الدقة مكنت المشتغلين بالعلوم من الاتفاق على ما هو صحيح مقبول وما هو خطأ مرفوض، نرى تعذر ذلك فى المجال الوجدانى، فما تستريح له النفس عند زيد يكون هو نفسه مصدر القلق عند خالد وهكذا إلى آخر الأمثلة التى تبين دقة كاتبنا فى مجال التحليلات اللغوية والفلسفية وحرصه على الرجوع إلى كتب تراثنا فى العديد من المجالات الفكرية والأدبية.

ويعطينا كاتبنا أكثر من فرق بين "المبدأ" فى مجال العلوم والمبدأ فى مجال الأخلاق. فالمبدأ فى الحالة الأولى ليس مطلوباً لذاته بقدر ما هو مطلوب للنتائج التى تتولد عنه أى أنه وسيلة توصلنا إلى غاية وليس هو نفسه الغاية التى نريد الوصول إليها، كالطبيب الذى يقوم بالتشخيص لأجل العلاج، أما المبدأ فى عالم الأخلاق فإنه نقطة بدء وأيضاً يشير إلى الغاية المراد الوصول إليها فإذا كان المبدأ، التمسك بالحق والصبر، فهو أيضاً المنتهى لأن غاية الغايات هى أن ينشأ مجتمع قائم على حق لا يشوبه باطل.

يضاف إلى ذلك الفرق، فرق آخر، وهو أن معظم المبادئ الخلقية جاءت إلى الناس وحيًا من رسالات السماء وليست من صنع البشر، بالإضافة إلى أننا نجد طائفة أخرى من مبادئ الأخلاق قد انبثقت للإنسان من واقع حياته العملية، كأن نقول مثلاً إننا نأخذ بمبدأ مجانية التعليم لجميع المواطنين إعمالاً لفكرة المساواة. فيكون أمامنا مجموعتان من المبادئ الخلقية. مجموعة نزلت وحيًا ومجموعة أخرى نشأت من واقع الحياة الإنسانية. وإذا كان يباح للباحث العلمي أن يغير فروضه إذا ثبت له أنها فروض لا تؤدي إلى النتائج المطلوبة، فإنه في مجال الأخلاق، من حق الإنسان أن يغير المبادئ الخلقية التي نشأت من واقع الحياة الإنسانية، وذلك إذا تغيرت صورة حياته العملية.

ويحلل كاتبنا الرائد في فصل آخر من فصول كتابه، موضوع العروبة ويكشف عن خصائصها ويعطينا الكثير من الحقائق حول حقيقة العروبة. فالعروبة في جوهرها موقف من الكون ومن الحياة يتميز مما عداه من مواقف تقفها الثقافات الأخرى.

فليست العروبة دالة على عرق معين بل هي اسم يتشربه على
 مركب ثقافى معين من شأنه أن يهين لمن يتشربه ويعيش تحت مظلتـه
 موقفاً يستلهمه عند ردود الفعل كلما صادفه على طريق الحياة العملية
 حدث مثير.

ويشير زكى نجيب محمود إلى حقيقة لغوية تلفت النظر عند من
 يمعن النظر فى اللغة العربية. إنه يجد فى الأسماء الدالة على علاقات
 اجتماعية بعداً خلقياً كامناً فى صميم معناها مما يدل على عمق النظرة
 الخلقية عند العربى . فكلمة صديق تقيم فى صلب حروفها صفة الصدق.
 وكلمة جار تحمل فى صلب مبناها أن يجير الجار جاره إذا استجار.
 وكلمة صهر تحمل فى معناها صفة الانصهار . وكلمة مرء تقضى بحكم
 حروفها أن تكون المروءة صفة للإنسان. وكلمة أمة تشارك بحروفها كلمة
 أم مما يقضى أن تكون الروابط بين أبناء الأمة الواحدة هي نفسها روابط
 الرحم.

إن للعربى وقفته الأخلاقية والتي هي مستوحاة فى المقام الأول
 فى روح الصحراء فى لا نهائيتها البادية وفى ثباتها النسبى. ومدار

الإبداع الفنى عند العربى صورة مجردة لتأثره بالصحراء وذلك قبل أن تنصب العناية على تحليل الأفراد، ومن هنا جاء الأدب العربى القديم أبعد ما يكون الأدب عن فن الرواية أو فن المسرحية كما عرفها الغرب. وهذا ينطبق على فن الشعر العربى.. إن الشاعر العربى يصف ما يراه المثل الأعلى، ولا يصف أساساً الكائن المفرد المعين.

يقول زكى نجيب محمود: إن الشاعر العربى فى عمق أعماقه متعلق بالمثل المجرد لا بالمثل الجزئى مما يرى على الأرض وذلك استلهاماً لديمومة الحقيقة الصحراوية التى تحيط به.. فهو مؤمن فى حياته الفنية كما هو مؤمن فى حياته الدينية بأن "كل من عليها فان ويبقى وجه ربك". إنه يتكى على هذه الواقعة الجزئية أو تلك لينفذ منها إلى ما هو أقرب إلى المثل الأفلاطونى فى الموضوع الذى يعالجه.

ويعطينا الكاتب الرائد العديد من الأمثلة والتى إن دلتنا على شئ فإنما تدلنا على عمق لا حد له وثراء ثقافى بغير حدود. إنه يشعر بمسئوليته الكبرى كرائد عملاق ومفكر منقطع النظير إنه يعقد العديد من المقارنات بين فكرنا العربى وفكر الغرب، ويبين لنا أنه من العلوم الجديدة

وتطبيقاتها نشأت حرية أوسع أفقاً وأعمق غوراً ، حين تحرر الإنسان بفضلها من عوائق الطبيعة، لكن المصدر نفسه قد أدى إلى قيود من نوع جديد فرضت على الإنسان، كادت تفقده هويته وذاتيته لولا فنون جديدة وآداب جديدة وبعض النظم الجديدة عملت كلها على إعادة التوازن. وهذا هو عصرنا بخيره وشره. ولست أطالب العربي بأن يسبح في بحره عن صمم وعمى، بل أطلبه بأن يشارك بنصيب في الإمساك بعجلة القيادة ليحمل مع غيره تبعات عصر هو يعيش فيه.

إنها كلمات غاية في الروعة لا تصدر إلا عن مفكر حكيم. كلمات يقولها زكى نجيب محمود في آخر سطور الفصل الذى كتبه عن العروبة موقف وذلك فى كتابه " عربى بين ثقافتين وأعتقد من جانبى بأن هذه السطور تحل الكثير من الإشكالات التى تتعلق بقضايا الغزو الفكرى، والتقدم العلمى والأخلاق وغيرها من قضايا. إنه يمزج دواماً بين القديم والجديد، بين الأصالة والمعاصرة. إنه يعطينا أمثلة عديدة فى تاريخنا الفكرى المعاصر ويذكر أمثال طه حسين ومصطفى عبد الرزاق وعباس العقاد وأحمد شوقى وتوفيق الحكيم، ويرى إنه قد انقذت لهم شرارة

الموهبة عندما مست مواهبهم كنوز الأقدمين، وهكذا يكون العربى الموهوب بين حاضره وماضيه. يقول مفكرنا ورائدنا: إن الذى نريده هو أن يتلقى العربى الجديد أعمال سلفه بالحب والنقد معاً لينشأ فى نفسه ما يشبه الحوار ويمثل هذا الحوار الحى قد تنقذ شرارة الإحياء الذى يتلوه إبداع، فىكون فى هذه الحالة إبداعاً يحمل فى شرايينه دم الماضى، فيتلاحم ماض بحاضر فى نفس واحدة.

وينتقل بنا أستاذنا زكى نجيب إلى الحديث عن الجسور التى عبرناها ويكتب فى هذا الموضوع عشرات الصفحات ويعطينا مئات الأمثلة التى تكشف عن سعة اطلاعه وإحاطته بالموضوع إحاطة تامة وكاملة. إنه يتحدث عن الصحوة الثقافية فى الأمة العربية والتى بدأتها فى أواخر الثلث الأول من القرن الماضى، ثم رأينا أعلام حياتنا الثقافية فى النصف الأول من القرن العشرين، يمزجون فى وقتهم بين موروث وغربى، أو بين غربى وموروث. إن كلهم تقريباً على علم واسع بالموروث، وأيضاً على معرفة بتيارات الفكر الأوربى والأدب الأوربى. لكن ماذا نجد بعد ذلك للأسف الشديد؟ نجد جيلاً جديداً ملأ الساحة وقد

فقد القدرة اللغوية بشعبتيها العربية والأجنبية، فلا هو يستطيع قراءة الأصول العربية في عيونها ولا هو يستطيع أن يكون على صلة بما تنتجه ثقافة الغرب. وهذا يعد انهياراً فكرياً إذا قارنا بينه وبين كل ما كان يحدث في الماضي.

ويبين لنا زكى نجيب محمود، أن الأمة العربية قد أقامت جسرين لم ينقطع العبور عليهما بينها وبين فكر الغرب منذ الثلث الأول للقرن الماضي وإلى يومنا هذا، أحدهما النقل عن طريق الترجمة أو العرض والتلخيص، والآخر هو الصلة المباشرة بين عرب يعبرون إلى بلاد الغرب للدراسة أو للتجارة أو للسياسة أو غير ذلك من أهداف، وغربيين يعبرون من الغرب إلينا لتلك الأسباب المختلفة، ومن اللقاء الحى يحدث التفاعل بين الثقافتين أخذاً وعطاء.

فمن الصحيح إذن أن نقول إن أستاذنا يدعو إلى ثقافة النور والتنوير وينبها إلى خطورة أن نغلق علينا الأبواب والنوافذ . ولك أن تراجع - فيما يقول زكى نجيب - ألمع الأسماء التى سطعت فى سماء الفكر العربى لتزى كم منها قد استمد النور فى هذا اللقاء الفكرى، وليس

بالضرورة أن يكون النور صادراً عن أخذ أفكار الفريق الآخر كما هي، بل قد يصدر النور من النقد والمعارضة.

ومن المنطقي أن يبين لنا زكي نجيب أسباب تأخرنا الفكري الحالي، وهذا ما فعله حين خصص عشرات الصفحات تحت عنوان " من مواطن الضعف" وقد تحدث فيها عن المعوقات في مسيرتنا الفكرية أملاً من ذلك أن نغير من حياتنا ما نجده معوقاً لسيرنا الحضاري. لقد بذل في هذه الصفحات جهداً كبيراً. والقارئ لهذه الصفحات يدرك تمام الإدراك أنه أمام أستاذ بكل ما تحمله كلمة الأستاذ من معان ومدلولات. أمام حكيم لا ينطق إلا بعد دراسة وتدبر. لقد عرض علينا مواطن الداء وبين لنا طرق العلاج. إننا بناء حضارات وثقافات ولم يحدث لنا أن تخلفنا عن مواقع الريادة إلا في هذا العصر وحضارته.

ويعطينا الدكتور زكي نجيب أمثلة عديدة وتفصيلات لا حصر لها يكشف من خلالها أوجه تقصيرنا ليس في المجالات العلمية فقط، بل في المجالات الإنسانية أيضاً. ويقول عن حياتنا الفكرية إنها أضعف الجوانب جميعاً، إن الجانب الفكري من الفقر بحيث إذا أردت أن تتعقب ما يصح

تسميته بالفكر العربى فى عصرنا هذا فربما عدت من رحلتك خالى الوفاض. إننا لا نجد إلا مجموعة من التعليقات على فكرة سلفية أو تعليق على فكرة غربية. ومن الواضح أن التعليقات الأولى لا تحسب لصاحبها، وهذا هو الحال أيضا بالنسبة إلى النوع الثانى من التعليقات ألم أقل لكم أيها القراء الأعزاء، إن أستاذنا زكى نجيب استطاع عن طريق دراساته الإبداعية أن يملك القدرة على المقارنة بين أحوال النصف الأول من القرن الماضى، وبين ما يسود حياتنا الآن من فوضى فكرية.

بل إن أستاذنا زكى نجيب لا يكتفى بالمقارنة بين حالتين تقعان فى قرنين من الزمان، بل إنه خلال صفحات عديدة يعرض علينا تاريخ الفكر العربى من خلال المقارنة بين معقول ولا معقول، بين حرية الفكر وجمود الفكر، بين النور والتوير، والظلام والجهل. إنه يضرب أمثلة عديدة فى مجالات الأدب والفكر والفن.

إنها أمثلة تكشف - كما قلنا - عن تعمقه وتحليلاته الدقيقة. إنه يفعل ليس كالمؤرخ، بل إنه يفعل ما يفعله فيلسوف التاريخ وفرق كبير بين المؤرخ وفيلسوف التاريخ.

ويربط أستاذنا دواماً بين الفكر النظري للمفكر وبين مدى تأثيره في المجتمع الذي يعيش فيه. إنه يتحدث عن خصائص الثقافة وخصائص المثقف وكيف أن الثقافة لها بعدها الاجتماعي البارز، أو هكذا ما ينبغي أن تكون عليه. نجد هذا واضحاً في الفصل الذي عنوانه "فكر على فكر" من كتاب "عربي بين ثقافتين"، بل نجده في العديد من فصول الكتاب الأخرى، وذلك حين يتحدث عن قضايا التراث وعن الأصالة والمعاصرة وعن موقفنا من الغرب وعن الفرق بين الثقافة العربية القديمة والثقافة العربية الحديثة، بين ما يقول عنه فكر على فكر، وفكر على مشكلات حية. إن الفكر الأول يعد أقرب إلى شروح على فكر غيرنا، أما الفكر الثاني فهو الفكر الذي ينبض بالحياة، أي فكر على مشكلات حية.

والواقع أن كتاب "عربي بين ثقافتين" يثير العديد من القضايا الحيوية والجوهرية والتي ترتبط ارتباطاً مباشراً بأمتنا العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها. إنه يتحدث عن طبيعة الفكر وعن المفكر الأصلي وكيف يكون. إنه المفكر الذي يوجه فكره نحو الشيء أي نحو الموضوع قبل أن يوجهه نحو فكر جاءه من سواه فيصبح فكراً على فكر. يتحدث

عن النهضة وكيف أنها هي الصحوة التي تؤدي بنا إلى القوة بعد ضعف أصابنا. يميز تمييزاً دقيقاً بين الإبداع الفنى والأدبى والذى يقوم فيه الخيال بدور كبير وهو مضمون ذاتى يختص بصاحبه شاركه فيه الآخرون أم لم يشاركوه ، وبين المعرفة العلمية التي يتعلق مضمونها بالأشياء الخارجية كما هي واقعة تراها أبصار المشاهدين .

وكما يتحدث مفكرنا وهرمنا الفكرى الشامخ زكى نجيب محمود عن طبيعة الفكر وعن التمييز بين الإبداع الفنى والأدبى، وبين المعرفة العلمية وطبيعتها ونصيب الأمة العربية من كل نوع من النوعين سواء فى حياتها الماضية البعيدة أم حياتها الماضية القريبة وحاضرها، فإنه يحدثنا حديثاً رائعاً عما نريده من المفكرين أن يؤدوه حتى تتطلق النهضة العربية وثباً وثباً بعد ركود وقعود. إنه يتحدث حديثاً لا يصدر إلا عن مفكر حكيم، مفكر عملاق يضع هموم وطنه فى المكان الأول من اهتماماته. إن على المفكرين - فيما يقول - أن يرسموا الأهداف ليهتدى بها السائرون. إن عليهم رصد مشكلاتنا القائمة على أرضنا بالفعل ليعالجوها بقدراتهم العقلية ابتغاء الوصول إلى حلول.

ويلخص لنا أستاذنا الرائد فى الصفحات الأخيرة من كتابه القيم أبرز القضايا والمشكلات التى يجمعها الإجابة عن سؤال هو: كيف يمكن للعربى أن يحيا عربياً معاصراً لزمناه أو قل مشاركاً فى بناء عصره؟ ماذا يصنعه العربى بميراث عزيز عليه إزاء عصر جديد؟.

ويبين لنا مفكرنا أننا إذا استعرضنا حياتنا الثقافية كما هى قائمة ، وجدنا جانب الفكر أضعف جوانبها. إننا فى عالم الأفكار تحت خط الفقر، أى الفقر الفكرى ويحلل مؤلفنا كل نوع من أنواع الإنتاج الأدبى والعلمى والفكرى لمفكرينا العرب قدامى ومحدثين ويضع يديه على مواطن الداء ويحدد لنا طرق العلاج.

والواقع أن كتاب "عربى بين ثقافتين" يعد معبراً عن شموخ فكرى لرائدنا الكبير زكى نجيب محمود. إننا نجد فيه ثمرة فكر رائدنا وخلاصة تجاربه الفكرية ويعد معبراً عن اهتمامه البالغ بقضية الأصالة والمعاصرة. القضية التى أخلص لها منذ أكثر من ثلاثين عاماً. فإذا تحدثنا عن هذه القضية فإنه من الضرورى ومن الواجب أن نضع فى اعتبارنا أن زكى نجيب محمود يعد على رأس المهتمين بهذه القضية الكبرى فى

فكرنا العربي المعاصر. إن الحلول التي يضعها لهذه القضية أو المشكلة لا يمكن لفرد أن يتخطاها . لقد وضع مفكرنا عليها بصماته البارزة. ومن يحاول إهمال آرائه أو تجاوزها فإن وقته يعد ضائعاً عبثاً. فلم يكتب زكي نجيب ما كتب إلا لكي نضع كتاباته في سجل الفخر والخلود. ومن حقنا أن نفخر ونتفاخر بأننا من أبناء الجيل الذي يقف زكي نجيب على قمته دون جدل. ومن واجبنا دراسة آرائه وتقديرها حق قدرها. إنها آراء باقية خالدة وليست آراء زائلة فانية. إنها آراء لا تصدر إلا عن إنسان أوتى حظاً كبيراً جداً من حدة الذكاء وعمق التحليل. إنسان دخل تاريخنا الفلسفي والأدبي والفكري من أوسع الأبواب وأرحبها. إنسان يمتلك زمام الثقافة العربية والثقافة الغربية . إنه واثق الخطوة في كل ما يكتب. وواثق الخطوة يمشی ملكاً. إنه هرم ثقافتنا العربية المعاصرة. لقد شق طريقه وسط الصخور والأشواك وبحيث وقف على قمة عصرنا العربي الحديث. فكراً وفلسفة وأدباً. إنه الأستاذ . إنه زكي نجيب محمود.

كتاب: بذور وجذور

سيدرك القارئ في الحاضر والمستقبل وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، أهمية الكتب التي ألفها الدكتور زكي نجيب محمود، الكتب التي تكشف عن اهتمام رائدنا البالغ بالثقافة العربية وما أكثر مشكلاتها وقضاياها. ومن بين كتبه، ، كتابه: بذور وجذور.

لقد اختار زكي نجيب محمود عنواناً دقيقاً لكتابه ينطبق تمام الانطباق على الموضوعات البالغة الأهمية والتي تضمنها هذا الكتاب . استمع إليه أيها القارئ وهو يقول في أول سطور كتابه وفي المقدمة التي كتبها (ص ٥): أردت في فصول هذا الكتاب أن أتعلم حياتنا لأصل إلى جذورها التي منها انبثق جذع تلك الحياة، ثم من الجذع تفرعت الفروع وأورقت وأثمرت ثمارها، ثم لم أقف عند الجذور، بل مضيت في الحفر لأصل إلى البذور الأولى التي فعلت فعلها في خفاء التربة، حتى أخرجت الجذور.

كما يحدد كاتبنا العملاق حقيقة أفكاره. إنها أفكار عاشها الكاتب وعانها وكلها يدور حول تحليل حياتنا تحليلاً يردّها إلى بذورها وجذورها، لتتسأ فرصة أمام أبصار المبصرين أن ترى أين تكمن القوة وأين يكمن الضعف كما يشير إلى أنواع البذور وذلك باختصار في مقدمة كتابه (من ص ٦ إلى ص ١٣) إنها على النوع التالي:

البذرة الأولى هي حقيقة "المصرى" ما هي؟ من أى العناصر

تركبت هويته على امتداد التاريخ، وكيف نرى حياته الآن.

ويبين لنا زكى نجيب أن جوهر المصرى هو أن يحيا حياته الدنيا

بكل أفراحها وأحزانها، على أن ينظر إليها من خلال منظور دينى يبين له

أين الخطأ وأين الصواب. وإذا كانت العقائد الدينية قد تغيرت عليه، إلا أن

التدين قد بقى ملازماً له. إن لب التدين هو أن ينظر إلى الحياة الدنيا

كمقدمة لحياة الخلود.. إن حضارته إذن حضارة أخلاقية فى أعماقها. ومن

هنا تلتقى مصر مع سائر أجزاء الوطن العربى الكبير.

أما عن حياتنا اليوم، فإننا نجد صورة العلاقات قد تغيرت فى

صميمها. يقول مفكرنا الشامخ ومن خلال نظرته النقدية الحادة الذكاء: نقد

كاد الأمر يتحول من كون الأمة أمة واحدة، إلى كونها تجمعاً من أفراد، كل فرد منهم يسعى إلى الحصول على أكبر نصيب ممكن من الغنائم بأقل قدر ممكن من العمل، ومن هنا كان السابقون في هذا المضمار هم أبرع الناس حيلة ودهاء، وليس أرفعهم ذكاء وعلماً وعطاء، وما يقال عن أفراد الشعب الواحد من شعوب الوطن العربي، يقال عن الشعوب العربية بعضها إزاء بعض، فلم تعد الأمة العربية أمة بينها أواصر الأمة الواحدة، بقدر ما أصبحت عدداً من الشعوب يمكر شعب منها بشعب ليظفر دونه بالغنيمة، ولولا بقية جوهرية بقيت ، هي أن هذا التفكك أكثر ظهوراً على صعيد السياسة منها على صعيد الثقافة ، لقلنا إن الرحمن قد أوشك بنا على الفناء.

هذه الكلمة الرائعة من الدكتور زكي نجيب محمود، تدلنا على اهتمامه الكبير بالجانب السياسي إنه يحدد الداء ويصف الدواء، فهل يعلم ذلك أشباه الدارسين ذوى النظرة السطحية ومن يتصفون بالتخلف العقلي والذين قالوا إن زكي نجيب محمود، لم يهتم بالجانب السياسي في فكره.

إنهم يظنون إن الفكر السياسى ما هو إلا مجموعة من الخطب الرنانة والكلمات المتقاطعة، تماماً كالكلام الأجوف الذى يصدر عنهم.

البذرة الثانية: لماذا فقد الفرد الواحد من المواطنين فى الشعب الواحد، إحساسه بالآخرين؟ ما الذى غرس فى صدورنا ذلك الضلال الذى سواه الرؤية عند كل فرد حتى غلبت عليه الأنانية . لقد تم افتقاد الفكرة الموحدة بيننا عن حقيقة الإنسان ما هى؟.

إن الإنسان يعد كائناً اجتماعياً بطبعه ولا يتحقق له وجود إلا إذا نظر إلى نفسه من حيث هو عضو فى جسم كبير دون أن تقلل هذه العضوية من حقيقته كفرد مسئول. مثال ذلك الكائن الحى: فالقلب يؤدي وظيفته الكاملة، ولكن هذه الوظيفة لا تكون لها فائدة إلا إذا قام بمد سائر الأعضاء بزاد من الدم لكى تحيا. وهذا يقال عن سائر أعضاء جسم الإنسان كالرئتين والكبد والمعدة... الخ. لقد انتشرت بيننا الأنانية حتى ظن الفرد الواحد أنه يستطيع أن يسقط من حسابه سائر الأفراد، وظن الشعب الواحد من الشعوب العربية أنه يستطيع أن يسقط من حسابه سائر الشعوب.

وهذه البذرة الثانية والتي يكشف عنها زكى نجيب محمود، تعد شيئاً رئيسياً إذ نلاحظ فعلاً كيف انتشرت الأنانية بين أفراد الأمة الواحدة من جهة، وبين كل شعب والشعب الآخر من جهة أخرى. إن أكثر الدول العربية تتقاتل الآن فيما بينها، ومن النادر أن نجد أمة عربية فى منطقة ما من مناطق المعمورة، إلا وتشن الحرب أو العداء على أمة أخرى عربية، وهذا كله يعد معبراً عن الأنانية بين الدول العربية، تماماً كتعبيره عن الأنانية بين أفراد الأمة الواحدة، أو الشعب الواحد، أو الدولة الواحدة. وكم أكد فلاسفة العالم شرقه وغربه على أهمية أن يكون الإنسان كائناً اجتماعياً. نجد هذا عند أرسطو فى بلاد اليونان حين ذهب إلى أن الإنسان يعد مدنياً بطبعه، أى كائناً اجتماعياً. والإنسان الأنانى إذن يعد فرداً شاذاً، فرداً يعد معبراً عن اللامعقول، إذ لا حياة له إلا بأن يتعاون مع المجموع، وحتى ينتقل من صفته الفردية إلى صفته الجماعية، حتى ينتقل من مفهوم الفرد إلى مفهوم الإنسان، حتى يتخطى الجزئى إلى الكلى، وبحيث يصعد إلى أن يكون معبراً عن الإنسان كما ينبغى أن يكون الإنسان. ومن يتمسك بأنانيته، فإنه سيكون كالفرد الذى يعمل على موجة،

والآخرين على موجة أخرى. أما من يتخطى الأنانية إلى الغيرية ، إلى الإنسانية فإنه يكون بذلك معبراً عن التناغم والاتساق والانسجام.

أما البذرة الثالثة فيرى زكي نجيب محمود، مفكرنا الرائد العملاق، بأنها تعد خاصة بالثقافة والمثقفين في حياتنا القائمة. ويعرض علينا زكي نجيب مجموعة من المعاني تدور حول تعريف المثقف . فمن قائل يقول ، إنه ذلك الإنسان الذي يتميز بحب الكشف عن سر الحياة في شتى صدها وفي صورتها الإنسانية بصفة خاصة. إنه لا يكتفى بالوقوف عند أسطح الكائنات وخواطرها، بل يريد أن ينفذ إلى الباطن والجوهر . نجد هذا عند الشاعر والروائي والمسرحي والفنان التشكيلي والموسيقي. بل نجد هذا عند المثقفي ، فهو وإن لم يكن قد أبدعها بالدرجة الأولى، فإنه يحاول أن يعيد إبداعها في نفسه حيث يتلقاها بالدرجة الثانية. (ص ٩-١٠).

ومن الناس من يريد بالثقافة، التنوير، ويراد بالتنوير أن تزداد معارف الناس عن دنياهم بصفة عامة، وأن ترسخ عندهم النظرة العقلية لأمر حياتهم بصفة خاصة. (ص ١٠).

أما البذرة الرابعة التى يكشف عنها مفكرنا زكى نجيب محمود، فإنها تعد خاصة بالتراث وما نثيره حوله من ضجة تصم الأذان فلا تصغى ولا تسمع. إن مشكلات أسلافنا وإن اختلفت عن مشكلاتنا اليوم من حيث الموضوع، فهناك جانب مشترك يربطنا بهم. يقول زكى نجيب محمود: لقد طبق كاتب هذه السطور التجربة على نفسه، وعاد ليعيش لحظة مع أصحاب الفكر الفلسفى فى مشكلة عرضوها واختلفوا فى أمرها، فوجد نفسه منسجماً معهم فى جوهر الموقف، لأن المشكلة كانت عندهم هى هذه : يأخذون عن فلاسفة اليونان منطقهم، أم أن الأمر فى المنطق مرتبط باللغة، وبالتالي لا يكون المنطق اليونانى صالحاً للغة العربية؟ فلم يجد هذا الكاتب عندئذ فرقاً جوهرياً بين سؤالهم وسؤالنا، فما زال السؤال وارداً يحتمل اختلاف الرأى، إذ نسأل اليوم: أناخذ عن فلاسفة الغرب ؟ أم أن هؤلاء الفلاسفة يفلسفون حياة ليست هى حياتنا؟ (ص ١١).

ويشير زكى نجيب فى دراسته لهذه البذرة الرابعة إلى مشكلة الأصالة والمعاصرة، المشكلة التى أخلص لدراستها والبحث فيها ما يقرب من نصف قرن من الزمان وبدرجة لا نجدتها عند أى مفكر فى

عالمنا العربى المعاصر . لقد ارتبط اسم زكى نجيب محمود بتلك المشكـلة، مشكـلة الأصالة والمعاصرة، بل ارتبطت المشكـلة، باسمه وبقلمه ومن يحاول أن ينكر ذلك، فوقته ضائع عبثاً. إن مؤلفاته فى هذا المجال، مجال الأصالة والمعاصرة لا يستغنى عنها أى مهتم بدراسة هذه المشكـلة من قريب أو بعيد . وأكثر المحاولات التى نجدها عند أناس يزعمون أنهم يحلون جوانب تلك المشكـلة، إنما تعد محاولات سطحية زائفة، ولم لا؟ وهم من أشباه الدارسين أو أشباه المتقنين، والثقافة منهم براء، تحسبهم من المفكرين، وما هم المفكرين، ولكنها الشهرة العمياء، والطبل الأجوف، بل إنهم صعدوا فوق أكتاف زكى نجيب محمود، ولكنهم أساءوا إليه بعد ذلك، ولم يفهموا أفكاره الحقيقية. لقد تقدم زكى نجيب محمود فى دراسته لهذه المشكـلة الكبرى ، مشكـلة الأصالة والمعاصرة، بخطوات رائعة ثابتة وواثقة، استمع إليها القارئ العزيز إلى زكى نجيب محمود، وهو يقول: إن الدرس المهم الذى خرج به هذا الكاتب من تلك التجربة، هو أننا لو عقلنا ألفينا أن أسلافنا وهم يعالجون تلك المشكـلة، والتى هى نفسها المشكـلة التى نتحدث عنها اليوم على أنها مشكـلة التراث، والحفاظ عليه،

نراهم يحصرون المشكلة فيما يمس جوانب ثقافية قائمة بالفعل عندهم، ولم يجاوزوا ذلك ليجعلوها مشكلة تشمل كذلك الجوانب التي لم يكن في حياتهم مثيل لها،.... ولك أن تراجع كتاب الأخلاق لمسكويه فتراه يأخذ عن التصور اليوناني لعلم الأخلاق أصولاً كثيرة، فلم يقلقه هذا الأخذ ولا أقلق سواه مع أن الموضوع خاص بالأخلاق وتتنظيرها، مما كان يمكن للمعترض على متابعة اليونان فيه أن يجد الكثير الذي يعترض به، إذ الأخلاق تمس صورة الحياة الإنسانية في الصميم، فإذا كان هذا هو موقف القدماء في مشكلة التراث أيامهم أليس الأجدر به أن يكون هو موقفنا اليوم إزاء المشكلة ذاتها؟ (ص ١١-١٢).

وتثير هذه العبارة مجموعة من الأسئلة التي تتعلق بالعديد من القضايا البالغة الأهمية والتي تدور حول ما الذي نأخذه من التراث، وما الذي نرفضه، وما هو معيار القبول ومعيار الرفض، وما حقيقة ما يثيره ضعف العقول في هذه الأيام حول الغزو الفكري، وأن الظلام من الغرب، إلى آخر تلك القضايا والمشكلات المهمة، والتي لا نجد مفكرنا زكي نجيب محمود حريصاً على دراستها والإشارة إليها في هذا الكتاب،

كتاب بذور وجذور فحسب، بل نراه حريصاً على دراستها وتحليلها وسبر أغوارها في عشرات الكتب الخالدة التي قدمها لمكتبتنا العربية ومن بينها الشرق الفنان، وتجديد الفكر العربي، والمعقول واللامعقول، وثقافتنا في مواجهة العصر، وذلك على النحو الذي أشرنا إليه منذ قليل.

وينتقل بنا مفكرنا الشامخ إلى الحديث عن البذرة الخامسة من بذور الشجرة الثقافية كما هي قائمة بيننا وهي التي تتعلق باللغة ويذكر لنا مفكرنا عدة جوانب تتعلق باللغة ويبين لنا أن هنالك ضربين من استعمال اللغة، فهي إما تشير إلى واقعة من وقائع العالم من حولنا، وعندئذ يستطيع المتلقى أن يراجع صدقها على الواقعة المشار إليها، وإما تشير إلى حالة خاصة عند المتكلم، كأن يقول إنه يشعر بالظماً، وعندئذ ليس في وسع أحد أن يراجع قوله تصديقاً وتكذيباً. وهذا الجانب الشعوري ينقسم بدوره إلى قسمين، أولهما أن يجيء الكلام من النوع الذي يتبادل الناس به أحاديثهم بغير قيد ولا شرط والثاني هو أن يصب الكلام في صورة تجعله أدباً، فيكون قصيدة من الشعر، أو رواية أو مسرحية وعندئذ تكون له

ضوابط يمكن على أساسها أن يناقش من الآخرين قبولاً ورفضاً.
(ص ١٢-١٣).

ويبين لنا زكى نجيب محمود، أننا نقع في الكثير من الأخطاء والخلط بغير حدود وذلك حين لا نتبين الفرق بين المجالين. يقول زكى نجيب محمود موضحاً ذلك: ووجه الخلط الذى نغرق فيه حتى أذقنا ونتعرض - بالتالى - لما ليس له حدود من التخبط الفكرى ، هو أن المتكلم أو الكاتب قد يقول عما يشعر به هو شعوراً خاصاً، ثم يلزم الآخرين بأن يتقبلوا قوله دون أن يكون لهم حق المعارضة بأن ما قاله بضاعة خاصة به، هو حر فى قبولها، والآخرىون بدورهم أحرار فيما يشعرون به أو لا يشعرون... إن اللغة التى من شأنها - إذا أحسن استخداماً - أن تنير الطريق إلى معرفة صحيحة بالعالم، قد أصبحت فى حالات كثيرة وسيلة إظلام يلفنا بضبابه ونحن على وهم بأننا فى مسقط النور (ص ١٢-١٣).

إن هذا القول من جانب زكى نجيب محمود يعد دستوراً لنا فى حياتنا الفكرية وذلك إذا درسناه وفهمناه حق الفهم. والواقع أن رائدنا

الكبير قد أخلص إخلاصاً لا حد له بدراسة اللغة وفلسفتها، بدراسة العلم وفلسفته. وهذه الدراسة المتأنيّة من جانبه ترتبط ارتباطاً رئيسياً بمحاولته الكبرى في مجال تجديد الفكر العربي. لقد أعانه التعمق في اللغة وفلسفتها، على التمييز بين المعقول واللامعقول، التمييز بين الصواب والخطأ. فهل يعلم ذلك من يقولون بأن محاولة زكي نجيب محمود في مجال تجديد الفكر العربي تتعارض مع دراساته العلمية والمنطقية. لقد وجد من أشباه المتقفين من يقول بذلك . وكنت حين اطلع على أقوالهم أقول فلتنذهب هذه الأقوال الساذجة إلى الجحيم وبئس المصير لأنها تعد جهلاً على جهل ومكانها الحقيقي هو سلة المهملات.

هذه هي البذور الخمسة التي يتحدث عنها رائدنا العملاق زكي نجيب محمود حديثاً آية في الدقة والعمق. بل إنه يلخصها في آخر إشارته إليها وذلك حين يقول: لقد جعلنا البذرة الأولى هوية تحطمت عناصرها حتى لقد فقد الفرد انتماءه، وجعلنا البذرة الثانية فهماً مخطئاً للإنسان، بحيث أخرجناه من مدار العقل لنضعه على أفلاك اللامعقول، وانقطعت وسائل التفاهم بين الناس، وكانت البذرة الثالثة ثقافة بلا غاية يتغياها

المبدعون كل بوسيطه الخاص بميدانه، فانعكس هذا التيه على المستقبلين، وكانت البذرة الرابعة عن التراث، فقد جعلناه هماً لنا بالليل ومشغلة لنا بالنهار، لأننا أخطأنا تحديد البؤرة التي يجب أن يتجه إليها البصر، وأما البذرة الخامسة فهي طريقة استخدامنا للغة في حياتنا الفكرية، إذ تحولت على أيدينا أداة لا تؤدي، وكان الأساس فيها أن تكون أداة توصيل من متكلم إلى سامع، أو من كاتب إلى قارئ. (ص ١٣-١٤).

ويحدثنا زكي نجيب محمود عن الجذور، كما تحدث عن البذور
لقد تفرعت مجموعة من الجذور عن تلك البذور.

ومن بين تلك الجذور، أن العملية الفكرية في أي ميدان من ميادينها لم تجد الغذاء الصحي الذي يغذيها فتتمو وتتج، وإذا كانت مقومات الحياة الثقافية أربعة أساسية: دين وفكر وأدب وفن، فإن الفكر في حياتنا هو أضعف الأربعة بلا نزاع (ص ١٤).

وإذا كان الجذر الأول يتعلق بالمنهج بوجه عام، فإن الجذر الثاني من جذور الضعف في حياتنا هو ما يتعلق بالتعليم.

ويواصل مفكرنا الشامخ زكى نجيب محمود حديثه عن الجذور من خلال نظرة نقدية واعية شاملة قل أن نجد لها نظيراً بين مفكرينا العرب المعاصرين، ومن هم من أهل التنوير ابتداءً من رفاة الطهطاوى. إننا نجد مفكرنا يتحدث عن حقوق المواطن وغيرها من حقوق خاصة بالفرد من جهة والمجتمع من جهة أخرى. لقد وضع زكى نجيب يده على موضع الداء وقدم لنا الدواء، وليتنا نستمع إلى كلماته الدقيقة الرائعة التي تكشف لنا عن عقلية شامخة، عقلية رائدة. إنه يتحدث كالحكيم العميق الحكمة. الحكيم الذي يملأ بقاع الأرض علماً. إنه يعلن في صراحة ووضوح وأثناء دراسته لآخر الجذور التي حدد عددها بخمسة، أنه لا طريق لنا إلا بالتمسك بالتنوير. استمع إليه وهو يقول فى آخر سطور مقدمته لكتابه الخالد، "بذور وجذور": لما كان التغير الدائب مؤدياً بالضرورة إلى التفكير فى "المصير"، كان مما يلفت النظر ما نلاحظه من ميل سائد فى مجتمعنا نحو العودة إلى الماضى نحتكم إليه فى أمور حاضرننا فيضيع منار المصير، كمن يلوى عنقه لينظر وراءه، فلا يرى فجوة شقت الأرض أمامه إلا بعد أن يقع فيها. ولا أمل لنا فى القضاء

على هذه النظرة الورائية إلا بحركة قوية نحو التنوير، وما التنوير سوى السير نحو النور، والطريق إلى التنوير هو تربية وتثقيف وإعلام تتآزر كلها على الإعلاء من شأن العقل كلما أردنا أن نرسم لأنفسنا سبيلاً يحقق لنا هدفاً. (ص ٢١).

والحديث عن البذور والجنود بالصورة التي أشرنا إليها نجده شائعاً في دراسة رائدنا زكي نجيب محمود، لكل الموضوعات التي اختارها والتي يضمها كتابه بذور وجنود، ذلك الكتاب الذي زادت صفحاته عن أربعمئة صفحة. لقد كانت موضوعات كتابه على النحو التالي:

- نافخ النار
- تلك المعزوفة الكبرى
- كان حتماً وما زال حتماً
- موطن الداء
- تلك أم المشكلات
- حاطب الليل

- حقائق الأشياء وظلالها
- لولا اخترقنا هذا الجدار
- من ذا يزيح هذا الضباب
- وقفة عملية هادئة
- فطرة الإنسان تهديه
- طريق القدماء طريقنا... ولكن.
- ضمائر العلماء
- لجاج واختصام
- صورة مصغرة
- وللحرية شيطانها
- رواية وراويها
- على سبيل الفكاهة
- اختلط الحابل بالنابل
- غمار الناس والصفوة
- الإمام الغزالي تحاوره حواسه

- الشجرة المباركة

- عن العقل ونضجه

ونلاحظ أن النظرة التجديدية العقلية العلمية تسود دراسة زكى نجيب محمود لكل الموضوعات التي اختارها مجالاً لدراسته تحت هذه العناوين التي ذكرها الآن.

نعم إن النزعة التنويرية هي النزعة التي يتمسك بها زكى نجيب محمود طوال حياته. وعلى سبيل المثال نجد في مقالته عن الشجرة المباركة يبين لنا الصلة بين العلم والنور فهو يقول: الصلة بين " العلم " والنور " شئى معروف مألوف حتى لنسمع عبارة "العلم نور" شائعة على الألسنة بين عامة الناس فضلاً عن خاصتهم وإنه لقول صادق إلى آخر حدود الصدق برغم ما فيه من مجاز. فالنور يقشع الظلام عن الأشياء فتراها الأبصار بعد أن لم تكن رأتها وهي ملتفة بظلامها، وكذلك يفعل "العلم" بشئى ما لأنه يتيح لصاحبه أن يرى من تفاصيل ذلك الشئى ومن حقائق طبيعته ما يتيح له أن يستخدمه وهو آمن، فلا فرق إذن بين "نور"

يبين معالم الطريق، "وعلم" يبين معالم الأشياء فنطوعها كيف شئنا.
(ص ٣٨٣).

ومن هذا المنطلق يحل رائدنا زكى نجيب الآية القرآنية: " الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجه كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم".
لقد حل زكى نجيب محمود هذه الآية تحليلاً غاية فى الدقة والروعة (من ص ٣٨٣ إلى ص ٣٩٤) وكان ذلك بعد قراءته لكتاب مشكاة الأنوار للغزالي منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً. ويربط بين أول الآية (الله نور السموات والأرض) وآخر الآية (والله بكل شىء عليم)، كما يربط بين حركة التنوير عند العرب، وحركة التنوير فى التاريخ الأوروبى الحديث.
إن هذا الربط لا يستطيع أن يقوم به إلا كاتب جبار مثل زكى نجيب محمود. كاتب ملأ بقاع الأرض علماً ومعرفة. إنه يربط بين التنوير والعلم، يربط بين التنوير والعقل. فهو يقول: فلما جاء القرن العاشر

وامتداده فى الحادى عشر، بلغ التنوير ذروته ، فكانت رسائل إخوان الصفا بمثابة دائرة المعارف التى هى عادة رمز يشير إلى التنوير من ناحية جمع المعلومات وكانت الفلسفة قد بلغت ذروتها عند الفارابى وابن سينا مما يشير إلى سلطان العقل (ص ٣٩٣).

والواقع أنه ليس بالإمكان الإشارة ولو مجرد إشارة إلى الدروس الرائعة التى يمكن أن يستفيد منها القارئ والدارس من خلال تحليله لهذا الكتاب، إن النزعة التنويرية وإقامتها على أساس العقل والعلم، والربط بين التنوير عند أجدادنا القدامى من أمثال إخوان الصفا والفارابى وابن سينا، والتنوير فى الفكر الأوروبى عند أمثال فولتير وكانست الفيلسوف الألمانى، لا نجده فى مقالته عن الشجرة المباركة فحسب، بل نجده فى العديد من مقالاته ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر، طريق القدماء طريقنا، ولكن، ومقالته عن العقل ونضجه ... الخ.

وإذا كنا قد أشرنا إلى البذور والجذور التى كشف عنها زكى نجيب محمود، فى الصفحات الأولى من كتابه ، فإننا نجد تطبيقات عديدة لإشاراته الذكية الرائعة والعميقة فى العديد من صفحات كتابه، ومن بينها

مقالة بعنوان من ذا يزيح هذا الضباب (من ص ١٤١ إلى ص ١٥٥)،
ومقالة بعنوان "وقفه علمية هادئة" (من ص ١٥٧ إلى ص ١٧٢)، ومقالة
بعنوان "تافخ النار" (من ص ٢٣ إلى ص ٣٦).

ولا يخفى هرمننا الفكرى الشامخ زكى نجيب محمود قلغه على ما
صارت إليه أحوالنا الثقافية إنه يقول فى مقالته عن "حقائق الأشياء
وظلالها": والذى أزعمه عن حياتنا الثقافية اليوم، هو أن هذا الجانب
الفكرى منها الذى لا هو إبداع أدبى أو فنى، ولا هو من زمرة العلوم، قد
ضعفت فى نفوسنا نبرته وفترت فى سلوكنا دفعته المحركة الموجهة،
وربما نتج ذلك بسبب ضحالة من ننعتمهم بالمفكرين ضحالة نشأت عن
أكثر من سبب واحد، فهناك الظروف الاجتماعية والسياسية التى مالت
بالناس نحو رفض عصرهم، هروباً إلى الماضى ليختاروا منه ركناً آمناً
هادئاً لا يتعرضون فيه لعواصف الأقوياء الذين هم أعداؤهم
ومستعمروهم، والقابضون على رقابهم بقوة العلم، أولاً، وقوة المال التى
ترتبت على نتائج العلم ثانياً، وقوة السلاح التى نتجت عنهما معاً
(ص ١٢١-١٢٢).

وهكذا ينتقل زكى نجيب محمود من سبب إلى آخر، من المقدمات إلى النتائج، وبكل صدق وموضوعية. وكم أشار إلى العديد من القضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية التي تهم أبناء أمتنا العربية من الخليج إلى المحيط، وقدم لنا آراء غاية في الجرأة والدقة لبيتنا نستفيد منها ونضعها موضع اعتبارنا وذلك إذا أردنا لأمتنا سبيل التقدم والرفق.

إن إحاطة رائدنا ومعلمنا الكبير زكى نجيب محمود بكل موضوع تصدى لدراسته بين صفحات كتابه "بذور وجذور" تعد إحاطة شاملة وغاية في الدقة وتكشف عن اطلاع غزير على الثقافتين العربية والغربية. تدلنا على إحاطته الشاملة بالثقافة العربية في قديمها وجديدها.

إن الدكتور زكى نجيب محمود من خلال صفحات هذا الكتاب، وبقية كتبه الأخرى، يعبر عن سموه فكرى صادر عن إيمان بالعقل، إيمان بالتتوير، إيمان بالعلم. وستظل كتاباته أبد الدهر، لأنها تعد معبرة عن سمو فكرى جعله يقف على قمة عصرنا .

حصاد السنين

إذا كان زكى نجيب محمود قد قدم لنا كتابين بهما سيرته الذاتية وهما كتابه "قصة نفس" " وقصة عقل"، فإننا نجده قد قدم لنا كتابه الثالث فى مجال السيرة الذاتية وهو كتابه "حصاد السنين" والذي يعد - كما أشرنا - آخر كتاب من كتبه.

إن هذا الكتاب لا يمكن أن يستغنى عنه أى مهتم بفكرنا العربى الحديث والمعاصر من قريب أو من بعيد، وخاصة فى مجال السيرة الذاتية لمفكرنا زكى نجيب محمود، وأيضاً فى مجال الاهتمام بالقضية الكبرى عنده، قضية الأصالة والمعاصرة، القضية المحورية، قضية أن أكون أو لا أكون.

نقول هذا ولابد من القول به، لأننا نجد العديد من السير الكاذبة التى يكتبها أناس تحسبهم من المفكرين، وهم من أنصاف المفكرين أو من أشباه المفكرين هؤلاء الذين أفسدوا أرض الثقافة، والثقافة منهم براء، منهم من رحل عن دنيانا، ومنهم من لا يزال يفسد فى الأرض وبحيث تحولت

حياتنا إلى سواد وأصبحت خراباً بلقياً، وإن كان أكثرهم لا يعلمون، وذلك لأن سيرهم الكاذبة تعد جهلاً على جهل وتنتشر في بحور الظلمات.

ونود أن نشير إلى أن هذا الكتاب لا يمكن فهمه إلا إذا وضعنا في اعتبارنا أنه من الضروري دراسة كل أفكار زكي نجيب المحورية في سائر كتبه ، وخاصة أن كتابه حصاد السنين يعد كما قلنا آخر كتبه.

ومن أهم هذه الأفكار التي لا بد أن ندرسها قبل دراسة هذا الكتاب، أن زكي نجيب ينادى باستمرار بضرورة الربط بين الفكر من جهة، وحياة الناس من جهة أخرى، أو واقع الحياة والمجتمع.

إن حاله - كما يقول - لم يكن كحال الرجل الذي يلهو بالكلمات المتقاطعة في محاولة من جانبه لقتل فراغه.

بل من الضروري الاعتقاد بأن الفكر مرتبط بالمشكلات التي يحياها الناس حياة يكتنفها العناء، فيريدون لها حلاً حتى تصفو لهم المشارب، وبمقدار نجد الفكرة على صلة عضوية وثيقة بإحدى تلك المشكلات نقول إنها فكرة بمعنى الكلمة الصحيحة.

وهذا القول من الدكتور زكى نجيب محمود إنما يدلنا على إيمانه بأهمية الربط بين الفكر والفلسفة من جهة، والمجتمع من جهة أخرى، بمعنى أن تتحدد قيمة الفكرة على أساس مساهمتها في حل المشكلات الفكرية والاجتماعية في وطننا العربي، وما أكثر تلك المشكلات، الواقع أنى أجد نفسى - كما قلت في البداية - عاجزاً تماماً عن تحليل تلك الأبعاد الفكرية عند مفكرنا زكى نجيب محمود لأن أفكاره - كما قلت - باللغة العمق والدقة والثراء، وتحتاج إلى مجموعة من الكتب والدراسات والبحوث حتى يستطيع الفرد منا أن يستوعبها على الوجه الصحيح والدقيق.

إن أبرز ما يميز به زكى نجيب محمود إنما هو حسه النقدي والذي ظهر بأجلى صورته في موقفه من الفكر العربي وكيف نجد مواكبة بين هذا الفكر وبين تيار العصر والحضارة.

إنه يقول فى كتابه قصة عقل (ص ٢١٧): لقد قرأت ما قرأته (التراث العربى) ليكون حكمى عليه قائماً على معايير عصرنا نحن ، من حيث انتفاع الناس به وعدم انتفاعهم. إننى قرأت ما قرأته من التراث

العربي قراءة مثقف يعيش في القرن العشرين، ويتنفس في مناخ حضارى له خصائصه ومقوماته، ويريد أن يرى الحبل موصولاً بينه وبين أسلافه. ولكنه في الوقت نفسه يشعر بأنه ما كل ما عاشه أولئك الأسلاف صالح له هو ولزمانه، ولكنه لابد بحكم طبائع الأمور ذاتها، أن يكون فى حياة الأسلاف كذلك ما يجوز - بل ما يجب - أن يبقى ليبقى الرباط.

إن المعيار الذى أساسه نقبل موقفاً من التراث ونرفض موقفاً آخر، إنما يتمثل فى العقل وأحكامه، كما يتمثل فى مدى ملاءمته لروح العصر وحضارته.

لقد أخلص مفكرنا العملاق للبحث فى قضية الأصالة والمعاصرة إخلاصاً لا حد له. إنه يقول إن قضية الجمع بين أصالتنا وضرورة معاشتنا لعصرنا ربما كانت أهم ما تعرضت له من اهتمامات بالتفكير والكتابة. لقد أصبحت على يقين من أن هذه المسألة هى أم المسائل الثقافية جميعاً. إنها القضية التى يصح أن نقول حيالها قول هاملت فى أزمته النفسية: أن أكون أو لا أكون ذلك هو السؤال. (قصة عقل، ص ٢٢٢).

أما عن معاركه الفكرية، فما أكثرها . لقد أدت أفكاره كما هو الحال عند المجددين في كل عصر إلى كثير من المناقشات والجدال حولها. لقد بعثت الحياة الفكرية في عالمنا العربي المعاصر من مشرقه إلى مغربه.

هذا هو زكى نجيب محمود عميد الاتجاه العقلي والذي دعا إلى تمجيد العقل باعتباره الدليل والحكم.

إنني إذا كنت أختلف معه حول فكرة أو أكثر من الأفكار التي قال بها، فإن هذا يدلنا على عظمة فكره وثراء اتجاهه العقلي التنويري.

نعم إن كتاب حصاد السنين يعد فخراً لنا جميعاً كعرب. إنه يعد معبراً عن فكر ثاقب، ونظرة فلسفية متميزة، بذل فيه صاحبه جهداً، وجهداً منقطع النظير. يدرك ذلك المحلل لهذا الكتاب ومنذ أول صفحة من صفحاته حتى آخر سطور الكتاب، وبحيث نقول بلا تردد، بأننا لا نتصور أى مهمم بقضايا الفكر والثقافة، إلا إذا وقف عند كل صفحة من صفحات هذا الكتاب الخالد على مر الزمان. لقد أضاف به الدكتور زكى نجيب محمود إلى أمجاده الفكرية، أمجاداً أخرى ما أعظمها وما أروعها، وبحيث

نقول إن زكى نجيب محمود يعد هرمنا الفكرى، يعد أستاذاً لجيل وأجيال من الباحثين والدارسين، وإن كان أكثرهم لا يعلمون .

يقع الكتاب فى ٤٢٥ صفحة ويتضمن مقدمة ومجموعة من

الفصول من بينها:

- تغريدة البجع
- منهج جديد
- سنوات التحول
- رؤية واضحة.
- نار ونور.
- فرار إلى مدينة الأحلام.
- الصورة من بعيد.
- مطالع النور.
- المطبوعة الزرقاء.
- فى سبيل الوضوح.
- رؤية موحدة.

- إرادة التغيير.

- خيوط تلاقى.

- نهاية الطريق.

ويعد هذا الكتاب كما أشرنا، آخر كتاب قام بتأليفه زكى نجيب محمود، لقد قام بتأليف هذا الكتاب بعد صدور كتب له، ومن بينها على سبيل المثال، شروق من الغرب، وتجديد الفكر العربى، وموقف من الميتافيزيقا، قصة نفس، وقصة عقل، وهموم المثقفين، وعربى بين ثقافتين، والمعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى، وهذا العصر وثقافته، والشرق الفنان. وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك.

إن الكتاب الذى نحن بصدد الحديث عنه، كتاب حصاد السنين، لا يمكن فهمه حق الفهم، إلا إذا قرأنا كل التراث الذى تركه لنا مفكرنا العملاق، زكى نجيب محمود، لا يمكن إدراك ما فيه من أفكار إلا إذا وضعنا فى اعتبارنا الدور الحيوى والرائد الذى قام به زكى نجيب محمود، والذى يقف على قمة عصر التنوير فى مصر وعالمنا العربى.

يقول زكى نجيب محمود فى السطور الأولى من مقدمة كتابه (ص ٥): أحس الكاتب أنه وقد بلغ الخامسة والثمانين من عمره وانتابته عوامل الضعف والمرض أنه قد اقتربت سيرته الثقافية من ختامها مما أوحى له بأن يكتب هذا الكتاب ليقدم به إلى قارئه صورة للحياة الثقافية كما عاشها أخذاً وعطاءً وهى حياة طال أمدها حتى بلغ- عند كتابته هذه السطور - ما يزيد قليلاً عن ستين عاماً. بدأت قبل سنة ١٩٣٠م. وطالت حتى أو شك الزمن على الدخول فى سنة ١٩٩١م. ولقد حرص الكاتب أشد الحرص على أن يصور حياته العلمية والأدبية خلال هذه الفكرة الطويلة، فى نزاهة يتجرد بها عن الهوى ما كان ذلك فى مستطاع البشر.

هذه العبارة تكشف عن الدور الحيوى والرائد الذى قام به عملاق الفكر وهرم الثقافة العربية فى عصرنا الحديث. وإذا كنا نتحدث فى هذه الأيام عن التنوير وقضاياها، فإننى أعتقد راسخاً بأن كل سطر كتبه زكى نجيب محمود وفى أى كتاب من كتبه، إنما يعد من جانبه إسهاماً قوياً فى رحلة التنوير، والبعد عن الظلام واللامعقول.

لقد دافع زكى نجيب محمود عن حياة النور. أخلص إخلاصاً بغير حدود لقضيته الكبرى، قضية الأصالة والمعاصرة. حدد لنا أبعاد الصيغة الثقافية التي تلزمنا كعرب في عصرنا الحديث. إنه يقول في مقدمة كتابه (ص ١٨): ومنذ عامه السبعين، أخذ الكاتب يصدر كتاباً إثر كتاب، ومقالاً بعد مقال ليشرح ما يراه من الصيغة الثقافية المطلوبة، التي نضفر فيها خيطين معاً: أولهما الجانب الذي استبقناه من ثقافة أصيلة زرعت في أرضنا العربية وأثمرت، وثانيهما جانب متصل بالعلوم في صورتها الجديدة، والمنهج التقنى المميز لهذا العصر وغير ذلك مما هو حيوى لإقامة الحضارة على الصورة التي منها يتألف عصرنا في المقام الأول. فهذا كله يجب استزراعه في أرضنا من شتلات نستوردها من مراكز الحضارة الجديدة في الغرب. ومن الجانبين: ما هو أصيل أنتجناه نحن على امتداد تاريخنا وما هو مجلوب من بناء الحضارة الجديدة، تتألف الصيغة الثقافية الجديدة للوطن العربى.

هذه العبارة الخالدة التي يقول فيها مفكرنا زكى نجيب محمود،

تضع أمامنا رؤية واضحة محددة، وتثير لنا الطريق.

إن القارئ لكتب زكى نجيب محمود، ومن بينها كتابه الأخير، حصاد السنين، يستطيع القول بكل يقين إن الرؤية عند مفكرنا تعد واضحة. لقد حدد لنا الطريق. كشف عن الأدوات التي يجب أن نلجأ إليها إذا أردنا لأنفسنا طريق التقدم والبعث الجديد، ولكن ماذا نفعل ونحن نرى مجموعة من المتخلفين عقلياً، والذين يزعمون لأنفسهم أنهم أساتذة وما هم بأساتذة، يقومون بالهجوم على أفكار رائدنا زكى نجيب، وذلك عن طريق اللجوء من جانبهم إلى استخدام عبارات هلامية عرجاء تذكرنا بالكائنات المشوهة الخلقة. ويزعمون عن طريقها أنهم أصحاب مشروعات فكرية، وهى مشروعات زائفة تحسبها داخلة فى إطار الفكر، والفكر منها براء.

وفى نعمة لا تخلو من الحزن والأسى، يكتب رائدنا مقالته الأولى فى الكتاب، كتاب حصاد السنين تحت عنوان تغريدة البجع: يقال عن البجعة إنها إذا ما دنت من ختام حياتها سمعت لها أنات منغومة تطرب آذان البشر، ولا يمنع طربها أن تكون تلك الأناات صادرة- على الأرجح- من ألم يكويها، ومن هذه التغريدة الجميلة قبيل موتها جاء التشبيه عند أدباء الغرب الذى يصفون به عملاً جيداً أنجزه صاحبه ليختم به حياته، إذ

يقولون عنه إنه تغريدة البجعة، وقد أراد هذا الكاتب أن يقولها عن نفسه، لأنه لا يتوقع أن يقولها عنه سواه (ص ٢٠).

ويحلل لنا الدكتور زكى نجيب محمود جوانب كثيرة من حياته الفكرية تحليلاً يعد غاية في الصدق والأمانة والموضوعية. ونقول إن حياة هذا الرائد العملاق تصلح أن تكون دليلاً لكل شبابنا في هذا العصر الذى نعيشه على وجه الخصوص . إن فى حياته الفكرية مجموعة من الدروس التى تصلح أن تكون دستوراً لنا. إنه بذكائه الحاد يجاوز مرحلة التحصيل والحفظ إلى مرحلة النقد، وذلك منذ السنوات الأولى من حياته الفكرية. ولعل ما يدلنا ذلك تمام الدلالة، قوله: وصاحبنا منذ أوائل شبابه كان على يقظة كافية تحته أن يرى ويسمع ويقرأ، فكان له بهذا كله أن تجمعت لديه أفكار من هنا وهناك، تتفق أحياناً وتتعارض أحياناً، وقد كان يمكن أن يقف عند هذا الحد من التحصيل الذى يجمع ولا يعرف كيف ينتقى ويختار، وما أكثر ما تصادف بين الدارسين والقارئ من وقف عند عملية الجمع والتحصيل والحفظ، لكن صاحبنا بتوفيق الله قد وجد فى تكوينه دوافع داخلية تدفعه إلى مجاوزة تلك المرحلة إلى ما بعدها، وأعنى

مراجعة المحصل مراجعة نقدية تقبل هذا وترفض ذلك وتعديل من ذلك حتى يحس بنفسه وقد اطمأنت لوجهة من النظر تستريح لها، فتشعر وكأنما جاءت تلك الرؤية ثمرة طبيعية من إبداعها، وليست شيئاً غريباً أقحم عليها (ص ٢٢).

هذه العبارة تكشف لنا عن الفرق والفرق الدقيق بين المقلد والمجدد. فالمقلد يردد عادة مجرد ترديد الأفكار التي يقوم بحفظها وتحصيلها من بين ثنايا الكتب التي يقوم بقراءتها ، أو الأقوال التي يسمعها تتردد على أفواه الناس، أما المجدد فإنه يجاوز تلك المرحلة بحثاً عن الأفضل، بحيث لا يكون عالمة على أفكار الآخرين . إن المقلد ينظر إلى أسفل، أما المجدد وهو الذي يقوم بعملية إعادة البناء، فإنه ينظر إلى أعلى. و الفرق، و فرق كبير كما قلنا، بين من يلتقط الثمرة من على الأرض، و بحيث يكون عالمة على الآخرين، و بين من يصعد بنفسه إلى الشجرة حتى يحصل على الثمرة. هذا ما نقول به باستمرار.

و يبين لنا مفكرنا كيف عاش حياته الواعية في عالم الأفكار أكثر مما عاشها مع الناس. وحتى لا يساء فهم هذا الجانب، نرى الدكتور زكي

نجيب يقوم بتحليله وشرحه، وذلك من عدة جوانب من بينها لأن دنيا الأفكار لا تقتضى العزلة الكاملة عن الحياة اليومية، والدليل على ذلك اهتمام زكى نجيب بأداء الواجبات الاجتماعية وحرصه على إقامة الروابط بينه وبين الآخرين (ص ٢٤).

ومن بينها أن الدكتور زكى نجيب لا يملك منع نفسه من محاولة "التعليل"، لأى شئ يلفت نظره فى ظواهر الحياة. إنه يبحث لكل ظاهرة سلوكية عما يفسرها، وهو بحث يتم أكثره فى صمت ويخرج أقله إلى العلانية (ص ٢٥).

ومن بينها، الرغبة الشديدة فى أن يعتصم بجدران بيته، وأن يوغل فينكفى على دخيلة نفسه يجتر من مكوناتها ما عساه يطفو على سطح الوعي من ذلك المكنون (ص ٢٦).

والواقع أن الدكتور زكى نجيب محمود لم يسع يوماً إلى الشهرة. لم يسع إلى بريق المناصب. لقد أخلص للفكر إخلاصاً بغير حدود. وإذا كان قد عاش فى عالم الأفكار أكثر مما عاش مع الناس، إلا أن أفكاره

كانت وستظل هادية للناس طوال أجيال وأجيال. لم تكن عزلة سلبية، بل كانت عزلة إيجابية. عزلة ينبغي أن يتمسك بها كل من يتمسك بدولة الفكر. ومن يقف عند الصفحات التي حلل فيها رائدنا زكي نجيب ما يقصده بعالم الأفكار وعالم الناس، فإنه سيتعرف على الفرق، والفرق الشاسع بين الفكر كما ينبغي أن يكون، وبين أناس لا يتكلمون إلا بحكم مناصبهم، أناس لا يذكرهم الآخرون إلا بتأثير الدعاية والطبل الأجوف.

إن حياة الدكتور زكي نجيب لا تعني الغربة عن الآخرين. استمع إليه أيها القارئ العزيز وهو يقول: (ص ٢٧): " إن الوحدة العددية لمن يعتكف ، وأعنى حين يكون الإنسان في هدوء عزلته، ليس بالضرورة غربة يغترب فيها عن الناس وما يحيون به ويفكرون فيه، بل إنها كثيراً ما تكون هي الفرصة الذهبية للاتصال بخيرة الناس يستمع إليهم فيما يقولونه شرحاً لأفكارهم وتعبيراً عن وجدانهم، وإنها لأفكار، وإنه لوجدان لم ينزع من خلاء، بل استصفاه واستقاه هؤلاء المؤلفون من صميم الحياة التي يحبونها في دنيا الفعل والتفاعل".

ويذكر الدكتور زكى نجيب محمود مجموعة من الأعلام، مبيناً قيمة الأدوار التي قاموا بها وذلك فى النصف الأول من القرن العشرين. لقد كان هؤلاء الأعلام- فيما يقول- يجسدون بأشخاصهم وبأعمالهم روح هذا العصر الجديد. كل منهم فى جانب من جوانب تلك الروح، وإذا كان الدكتور زكى نجيب محمود يذكر هؤلاء الأعلام، فإنه يعطينا بذلك درساً فى الوفاء، وبياناً بأن المفكر لا يبدأ من فراغ . ويقينى أننا إذا أخذنا ذلك فى الاعتبار، فإنه سيتبين لنا تماماً أبعاد تلك المشروعات الوهمية التى ينسبها أناس إلى أنفسهم ويزعمون بأنهم بدأوا من فراغ، بل إن هؤلاء الأشباه أصحاب تلك المشروعات الزائفة يقومون بالهجوم على أعلام كبار دون أن يضعوا فى اعتبارهم أن هؤلاء الأعلام يمثلون الأصول. يمثلون الريادة الحقيقية، وسواء اتفقنا معهم أم اختلفنا. إن العبارة التى سنوردها بعد قليل من كتاب حصاد السنين تكشف لنا عن حدة ذكاء زكى نجيب واطلاعه الواسع ورؤيته النقدية الفلسفية لقد استطاع الكشف عن أخص خصائص فكر كل واحد من هؤلاء الأعلام. يقول زكى نجيب محمود (ص ٣١-٣٢). لقد كان هؤلاء الأعلام يجسدون روح هذا العصر الجديد،

كل منهم من جانب تلك الروح: أحمد لطفى السيد بما ينادى به من وجود الحرية الفردية المسئولة، رجلاً كان ذلك الفرد أو امرأة، وطه حسين بما عمل على إشاعته فى النفوس من إزاحة التقديس عن حقائق التاريخ... وعباس محمود العقاد بمجموعة دواوينه الشعرية، إنما قدم للناس تطبيقاً مجسداً للفردية المستقلة الحرة التى اضطلع لطفى السيد بالدعوة إليها فى مجال السياسة، ويمكن القول كذلك بأن أمير الشعراء أحمد شوقى قدم إلى الأمة العربية شعراً يرسخ فى قلوبهم روح الانتماء القومى... ولئن كان شعر العقاد تعبيراً عن الفردية فى وجودها السياسى فإن جماعة "أبولو" التى تكونت فى أوائل الثلاثينات، حرصت على أن تمثل بشعر شعرائها روح الفردية من جانبها الوجدانى الخاص، وهكذا نستطيع أن نجد فى روادنا من أعلام الجيل الماضى مرآيا تعكس صورة العصر من شتى جوانبه.

ويبين لنا الدكتور زكى نجيب محمود كيف كان الحوار فى تلك الفترة بين روادنا وبين بعض رواد الغرب، وذلك حتى تكتمل الصورة، فهو يقول (ص ٣٢): لم تكن الروح التى طالبت بأن تهدم الصورة

الحضارية التي تعفنت بحلول هذا القرن، تقتصر علينا، بل العكس ربما كان أقرب إلى الصواب. إنها كانت قبل ذلك مشتتة عند أعلام أوروبا من رجال الفكر والأدب، وجاءتنا نحن ومضات من ضيائهم، بما كان قد توطد من صلات بين رواد حياتنا الثقافية ورواد حياتهم هناك في الغرب، إلا أن انعكاس الضوء على مرآتنا قد جاوز حدود الأصل ليثور على ذلك الأصل الوافد نفسه، كلما تعارض مع ركائز ثقافتنا، ومن هنا رأينا بين روادنا من شغل نفسه بالرد الراض لما يكتب عبر البحر أو يقال، على غرار ما فعل الأفغانى فى " الرد على الدهريين "، والشىخ محمد عبده فى الرد على "هانوتو" و"رينان"، والعقاد فى الرد على كثير مما قاله مستشرقون كتبوا عن الإسلام والمسلمين. وإلى جانب هؤلاء الذين تأثروا بما كتب أو قيل فى الغرب وتولوا الرد عليه، كانت هنالك جماعة تتخذ أسلوباً آخر فى إيجاد التوازن الثقافى الذى يصون الهوية العربية الإسلامية حتى لا تتجرف مع تيار الفكر المنقول، تتمثل تلك الجماعة فى أفراد عرفوا كيف يكتبون بأقلام عربية قومية رصينة، مادة عربية

وإسلامية أصيلة، كالذى نراه عند مصطفى صادق الرافعى، وأحمد حسن الزيات، والشيخ عبد العزيز البشرى وغيرهم.

لقد ذكر زكى نجيب محمود هذه النماذج لكى يبين لنا كيف وقف فى شبابه الطموح وسط إعصار من رياح التجديد والتغيير.

وينتقل مفكرنا ورائدنا زكى نجيب محمود فى الفصل الذى جعل عنوانه " نار ونور " إلى الحديث عن معالم ثقافية أخرى، لم يكن إزاءها متأثراً فحسب بل كان مؤثراً، كان له دوره الحيوى والفعال بالنسبة لها. فهل يمكن أن ننسى نشاطه الكبير فى لجنة التأليف والترجمة والنشر، وهى من أعظم لجان التأليف والنشر فى القرن العشرين وفى عالمنا العربى؟ لقد سعت إلى تحقيق الأهداف التى قال بها رفاة الطهطاوى فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

وبشرح زكى نجيب هذه الأهداف الثلاثة، فهى تريد قناتين تنتهيان إلى ثلاثة تغذيانها بما تحملانه من رحيق. والقناتان هما إحياء الماضى الذى يستحق الإحياء ونقل من ثقافة الغرب لما يستحق أن ينقل، فيكون الأمل المرجو بعد ذلك هو أن يتلاقى الغذاء آتياً من نفائس آبائنا من قناة

الإحياء، وآتيا من نتائج الغرب قديمه وحديثه على السواء من قنائة الترجمة. فإذا صادف ذلك المركب الغذائى موهبة أبدعت جيداً بوحى مما استقبلته من هنا ومن هناك (ص ٣٥).

فأين نحن الآن من هذه اللجنة الثقافية. لقد تحولت أكثر دور النشر فى عالمنا العربى إلى أدوات تجارية. تحولت إلى أدوات لنشر الفكر المظلم تحت تأثير الدولار. وسحر الدولار. أين نحن الآن من الجهد الكبير الذى بذله أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر، وهم أناس آمنوا بوطنهم، أناس أدركوا أهمية الفكر الجاد، ولم يكونوا كهؤلاء الذين انتشروا الآن فى عالمنا العربى ويقومون بالصراخ والضجيج، ويقولون عن أنفسهم إنهم من الشعراء، وليس بينهم وبين الشعر أية صلة من قريب أو من بعيد. يقولون إنهم ينتجون فكراً إبداعياً، فى الوقت الذى نجده فى حقيقته مجموعة من الكلمات المتقاطعة لا تصدر إلا عن أناس بلغوا أقصى درجة من التخلف العقلى وبئس المصير.

يقول زكى نجيب محمود (ص ٣٥): وهكذا أراد مؤسسو لجنة التأليف والترجمة والنشر، وهو أن تنقل بالترجمة عن الغرب ما تختاره

من نتاجه وأن تقوم على نشر ما ترى نشره من التراث وذلك بعد تحقيقه، ثم تترك للمواهب المبدعة أن تؤلف من لديها ما تثمره تلك المواهب، وكان أحمد أمين هو المهندس الأول الذى يضع المطبوعة الزرقاء لما ينبغى أن تسير عليه خطوات البناء، فهو بحق طهطاوى القرن العشرين فى مصر.

إن الفصل الذى كتبه زكى نجيب محمود تحت عنوان "نار ونور"، يصلح تماماً أن يكون سجلاً للحياة الثقافية فى مصر والعالم العربى فى فترة من الزمان. إنه يعد سجلاً فكرياً من النادر أن نجد له مثيلاً فى الكتب التى اهتمت بتحليل الحياة الفكرية فى عالمنا العربى، ومصر على وجه الخصوص. فالصفحات من ٣٤ حتى ٤٦ تعد وثيقة مهمة تكشف عن الأوضاع الثقافية فى مصر، وصلاتها بما يحدث فى أرجاء العالم، ومدى تأثيرها فى أفكار رائدنا العملاق زكى نجيب محمود. إنه ينظر إلى الأوضاع الثقافية من خلال رؤية نقدية، ويقارن بين تلك الأوضاع، وما يحدث فى الواقع.

وينتقل الدكتور زكى نجيب محمود فى فصل من فصول الكتاب بعنوان " منهج جديد " إلى بيان التفرقة بين فكر وفكر، بين منهج ومنهج. يحلل تحليلاً دقيقاً العديد من الألفاظ. ويقول مفكرنا فى عبارة غاية فى الدقة والروعة (ص ٥٩) : " والسعى وراء مزيد من المعرفة بطبائع الأشياء وحقائق المعانى، هو بمثابة الجوهر فى حركات التنوير. فكلمنا زدنا أبناء الأمة إدراكاً للمعارف الصحيحة عن دنياهم، زدنا بالتالى "توراً" وعكس ذلك هو الظلمة والظلام والظلم، نعم، نعم إن " الظلم" صنو "الظلام" لغة ومعنى. فإذا رأيت الظلم قد باض وأفرخ فى هذا الركن أو ذلك من أركان الوطن العربى، فاعلم أن علة ذلك هو أن عتامته قد حجبت " النور " عن الأفئدة لقلة ما يعرفونه ومع القلة جاءت كذلك أغشية من ضباب الخلط والغموض، ومن أجل هذا قامت فى الناس حركات " التنوير " كلما دعت دواعيها، ولب. " التنوير " هو مزيد على مزيد من معرفة صحيحة واضحة.

ويقيني أن من يتحدثون عن التنوير الآن يجب أن يضعوا فى اعتبارهم هذه العبارة الرائعة والدقيقة. ولو كانوا وضعوا ذلك فى

اعتبارهم، لما قالوا بعباراتهم الخطابية الإنشائية الفارغة من المضمون والتي لا صلة بينها وبين التتوير من قريب أو من بعيد.

ويواصل الدكتور زكي نجيب محمود حديثه عن رحلته الفكرية، ويقف عند كثير من المحطات الفكرية المهمة، ويكشف عن مدى تأثيره بها، وتأثيره فيها. والواقع أن حديثه عن رحلته الفكرية في كتابه حصاد السنين يعد جزءاً لا يتجزأ مما وجدناه في كتابيه العظيمين: قصة نفسه، وقصة عقل. ومن هنا يكون من الضروري لفهم أبعاد شخصية رائدنا ومعلمنا زكي نجيب محمود، الرجوع إلى كتابه حصاد السنين وبحيث يقوم المرء بدراسته مع كتاب قصة نفس، وقصة عقل.

بل إن كتاب حصاد السنين يعد تاجاً بالنسبة لبقية كتب زكي نجيب. إنه يوضح لنا العديد من الأمور التي لا بد من معرفتها حتى ندرك الأهداف السامية والنبيلة والتي سعى إلى تحقيقها من خلال إقدامه على ترجمة ما ترجم، وتأليف ما ألف. إن كتاب حصاد السنين يعد وثيقة فكرية عظيمة لا أكون مبالغاً إذا قلت بأنني لا أتصور متقفاً عربياً دون دراسة هذا الكتاب دراسة واعية ودقيقة.

فأحداث مصر الفكرية وعلاقتها بما كان يدور في العالم الغربي، ودور زكي نجيب محمود الخالد في خضم هذه الأحداث، كل ذلك أصبح واضحاً تماماً بعد قيام الراحل والمعلم زكي نجيب بتأليف حصاد السنين.

لا نجد هذا واضحاً فحسب في الفصول التي تحدثنا عنها ووقفنا عندها، بل نجده في بقية فصول الكتاب وليرجع القارئ إلى حديثه الدقيق تحت عنوان "رؤية واضحة" (من ص ١٢٩ حتى ١٦٧). وتحليله الدقيق لتيار الفكر تحت عنوان "مطالع النور" (من ص ١٦٨ حتى ص ٢٠٨)، وأيضا تصويره الدقيق لما ينبغي أن تكون عليه حياتنا الفكرية إذا أردنا لنفسنا طريق التقدم، وذلك من خلال العديد من الصفحات التي كتبها تحت عنوان "المطبوعة الزرقاء" (من ص ٢٠٩ حتى ص ٢٤٧)، وتحت عنوان "إرادة التغيير" (من ص ٢٤٨ حتى ص ٢٨٨)، والعناصر المكونة لثقافته، وكيف ينبغي أن تكون الثقافة تحت عنوان "في سبيل الوضوح" (من ص ٢٨٩ - حتى ص ٣١٦) وتحت عنوان "خيوط تلاققت" (من ص ٣١٧ حتى ص ٣٤٣) وأيضا تحت عنوان "رؤية موحدة" (من ص ٣٤٤ حتى ٣٨٥).

إن القارئ لهذه الفصول لابد وأن يقول لنفسه، إنها تعد بجرأ على بحر، محيطاً على محيط، إنها لا تصدر إلا عن عبقرية فذة من النادر أن نجد لها مثيلاً. إن زكي نجيب يتحدث عن رحلته الفكرية الشاقة والمليئة بالأشواك والصخور، يتحدث عن كتبه وأفكارها الرئيسية، حديثاً غاية في الدقة والسمو والشموخ. إن كلماته من خلال هذه الفصول التي أشرنا إليها لا تصدر إلا عن مفكر ملك زمام الثقافتين الشرقية والغربية. إنه يتحدث في ثقة ويقين ووثق الخطوة بمشي ملكاً.

وهذه الخصائص نجدها أيضاً في الفصول الأخيرة من كتابه تحت عنوان "نهاية الطريق" (من ص ٣٨٦ - حتى ص ٤٢٥). وأقول بأنه من الضروري دراسة هذه الفصول دراسة واعية فاحصة ودقيقة. ويقيني أننا إذا حللنا هذه الفصول فإننا سنعرف تماماً مقدار البعد بين ما نزعمه من ثقافة في الوطن العربي، والثقافة الرائدة في العالم الأوروبي. سندرك تمام الإدراك أن أكثر من يطلقون على أنفسهم، ويطلق عليهم الناس لفظ "المتقف"، إنما لا يعبرون في كتاباتهم إلا عن الجهل والتخلف، ولكن ماذا نفعل أمام أبواب الدعاية والشهرة والطبل الأجوف.

إن زكى نجيب محمود من خلال صفحات كتابه، يعطينا الحلول لأكثر مشكلاتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية، يدلنا على الرأي الصائب الذي نهتدى من خلاله إلى تحديد أوجه العلاج، والكشف عن أوجه القصور. يخوض فى العديد من القضايا بقلمه الجبار، وصوته الهادئ ومن بين هذه القضايا قضية الغزو الثقافى، قضية التقدم العلمى والأخلاقى، وغيرها من قضايا نجد حولها الكثير من الجدل حتى أيامنا هذه. يفرق بين المعرفة فى المجتمعات الديمقراطية، والمعرفة فى المجتمعات الديكتاتورية بين معرفة النور، وجهل الظلام.

ويختتم رائدنا الذى احتل مكانة بارزة فى التاريخ الفكرى التنويرى، كتابه الرائع بعبارة إذا وقفنا عندها استطعنا التعرف على الأساليب الملتوية والتى من خلالها يحاول أشباه المتقفين، التأكيد للجمهور بأنهم من المتقفين، وذلك على الرغم من عدم وجود صلة بينهم وبين الثقافة من قريب أو من بعيد.

يقول زكى نجيب محمود (ص ٤٢٤ - ٤٢٥) : ولا يقتصر فساد

الموازين نتيجة لافتقار الجمهور إلى معلومات يستتير بها، على مجال

الحكم والسياسة، بل إن الضرر ليتسع حتى يكاد يشمل الحياة العلمية والثقافية بأسرها. فعندنا وعند أمثالنا ممن ضلّت معلوماتهم الصحيحة فقل وعيهم بنفس المقدار، تكثُر عملة الأقرام، إذ ليس على القزم الطموح برغم جهله وقصوره إلا أن يستخدم وسائل الإعلام لصالحه فما أسرع ما يتحول في خيال الجماهير وفي وهم الحاكمين إلى عملاق حتى يستطيع أن يكون عالماً بغير علم، أدبياً بلا أدب، أى شئ بغير شئ وتتصل بعملة الأقرام عملية أخرى قد تستوجبها الظروف فيلجأ إليها القزم الطموح، وهى عملية يجوز تسميتها كما أسماها صاحبنا ذات يوم فيما كتب، " قرصنة فى بحر الثقافة " فالقراصنة يخطفون أموال ضحاياهم وبضائعهم لتصبح ملكاً لهم ، وكذلك يفعل قراصنة الثقافة فى حياتنا.

فليس المهم عند أحدهم أن يقوم هو بالعمل، بل المهم هو أن يضع عليه اسمه اغتصاباً ولو كان فى حياتنا وعى نقدى لأتاحوا للرأى العام أن يميز الطيب من الخبيث. همونا الحضارية والثقافية كثيرة وكذلك منجزاتنا وأمجادنا كثيرة، فكيف السبيل إلى جمع عناصر القوة فى كياننا

ورؤانا، مع التّخلص من عوامل الضعف فى ذلك الكيان وهذه الرؤى
لينشا لنا العربى العصرى الجديد؟ هذا هو السؤال الذى حاول طوال حياته
الفكرية أن يجد له الجواب.

هكذا يختم مفكرنا العملاق كتابه الرائد " حصاد السنين " ولا
يخالجنى أدنى شك فى أن هذه العبارة الأخيرة التى ختم بها كتابه العظيم
تضع النقاط على الحروف، تكشف لنا عن أسباب انتشار أشباه المثقفين
فى مجتمعنا العربى. ولكن ماذا نفعل حين نجد لدينا محاكم للغش
التجارى، ولا نجد أمامنا محاكم للتزوير أو الغش الفكرى.
إن غياب الحركة النقدية الدقيقة. قد ساعد انتشار هؤلاء الأشباه.
إنك تحسبهم من المثقفين وهم غير مثقفين. إنهم أشباه مثقفين. إنهم كائنات
ناقصة مشوهة.

أقول وأكرر القول إن هذا الكتاب، كتاب حصاد السنين يصلح أن
يكون دستوراً لنا فى حياتنا الفكرية. يعد مثلاً للسيرة الذاتية الفكرية وما
ينبغى أن تكون عليه تلك السيرة... يعد قمة فى سمو الأسلوب، يعرض لنا
من خلاله حياته الفكرية وما أعظمها وما أروعها ولم يستند زكى نجيب
محمود إلى شهرة منصب أو إلى بريق إعلامى. بل إنه فعل بنفسه ودون
منصب، ما أدى به إلى أن يكون: زكى نجيب محمود.

بعض مراجع الكتاب:

بالإضافة إلى كتب زكى نجيب محمود ومقالاته والمشار إليها في الكتاب، يمكن الرجوع إلى ما كتبناه عنه في العديد من كتبنا ومن بينها.

١- العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر.

٢- ثورة العقل في الفلسفة العربية.

٣- البحث عن المعقول في الثقافة العربية.

٤- ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة.

٥- زكى نجيب محمود. مفكراً عربياً ورائداً للاتجاه العلمى التنويرى

- مجلد تذكارى - إشراف وتصدير: عاطف العراقى.

بالإضافة إلى ما كتبناه عنه في الكتاب التذكارى الذى صدر عنه

بجامعة الكويت، والكتاب التذكارى الذى صدر عن المجلس الأعلى للثقافة

بمصر.

هذا كله بالإضافة إلى مئات المقالات التى كتبناها عنه وعن فكره

بالعديد من الدوريات والمجلات والصحف داخل مصر وخارجها من دول

العالم العربى والعالم الأوروبى، ومن بين تلك المجلات والصحف، مجلة

عالم الكتب، ومجلة أون، ومجلة الديمقراطية، ومجلة المنتدى، وجريدة الأهرام الدولية، وجريدة الأهرام بمصر، ومجلة الأزمنة بفرنسا.

كما توجد نصوص للعديد من المحاضرات التي ألقيناها عنه بالمنصورة ودمياط والقاهرة والإسكندرية وأسيزى بإيطاليا ، وصقلية، والفاتيكان... الخ.

ويمكن الرجوع أيضاً إلى بعض الرسائل الجامعية عن مفكرنا،

ومن بينها:

أثر الاتجاه التحليلي في فكر زكي نجيب محمود للدكتورة نوران

الجزيري، والتوفيق بين الثقافتين العربية والإسلامية والغربية في فكر

زكي نجيب محمود للباحثة فوزية عيد موسى مرجى، والمصطلحات

الفلسفية عند زكي نجيب محمود للباحث كورين حنة، والمفارقات المنهجية

في فكر زكي نجيب محمود للباحث أسامة الموسى، وتأثير الوضعية

المنطقية على الفكر العربي الحديث من خلال زكي نجيب محمود

الدكتورة نجوى حمادة، والجوانب الأدبية في كتابات زكي نجيب محمود

للدكتورة نجوى عمر، والاتجاه النقدي في فكر زكي نجيب محمود،
للدكتور علاء والي، والعقل ووظيفته في فكر زكي نجيب محمود للباحثة
فوزية عيد موسى مرجى.

وهذه الرسائل كان بعضها تحت إشرافنا والرسائل الأخرى تمت
مناقشتها داخل بلدان العالم العربي، والعالم الأوربي.

**شهادات وخطابات وذكريات
بين
زكى نجيب محمود وعاطف العراقي**

عن
 الحرة
 اتحدث
 الى اني المميز
 استاذ الدكتور عاطف المراد
 بتمه و تقدير
 ٨٦/٧/١٥ زلا نسيب



جامعة القاهرة

كلية التربية بطنطا

مدرسة إعداد المعلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

شهادة تقدير
السيد الأستاذ الدكتور عادل عطية

تقدم لكم بكل التكر والتقدير والوقار بالجميل عن المجهودات الثمينة
والإنجازات الإيجابية لإنهاءكم في مؤتمر زكوة نجيب محمود
والكتابة إذ تفر لكم كل جهدكم وفنمنا لتفريكم تملق لكم فؤاد
التقدم والتوفيق .

وفكم لله لما فيه الخير .

مع تحياتي
عبد الكافي ورئيس المؤتمر

أ.د. محمد أبو الشوح شريف



جامعة المنصورة
كلية التربية بسوهاج

شهادة تقدير

إلى جامعة المنصورة وهي تحفد بإقامة المؤتمر الثاني

للكلية التربية بسوهاج ضمن برنامج مهر حاسا

الأستاذة أمينة كاسا

١-٣ أبريل ١٩٨٦ م

تمتع هذه الشارة بالمفكر والفقيه الفيلسوف الدكتور الدكتور

زكي نجيب محمود

مفتة المؤتمر

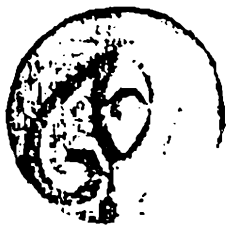
تقدير أمتها الدوريات الرائدة ومكانة العلمية والشكر

١٩٨٦/٥/١١

مدير الكلية
١٥/١٠/٨٨ الفقه من زكي
رئيس الجامعة
١٥/١٠/٨٨ الفقه من زكي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مجلس
التشاورية
الإسلامية

بالتصالحة رقم ١٤٤٤

العدد ١٤٤٤ لسنة التشاورية الإسلامية في ٧ فبراير ١٩٨٩

قرر مجلس التشاورية منح شهادة تقدير

إلى السيد الأستاذان الأفاضل نكي نجيب مردتود

تقديرًا واعزازًا لجهود سيادته في دعم وتشجيع الحركة الفنية

وتنمية الثقافة والقيم الجارية في المجتمع.

٩ فبراير ١٩٨٩

نقيب التشكيليين

مجلس
التشاورية
الإسلامية



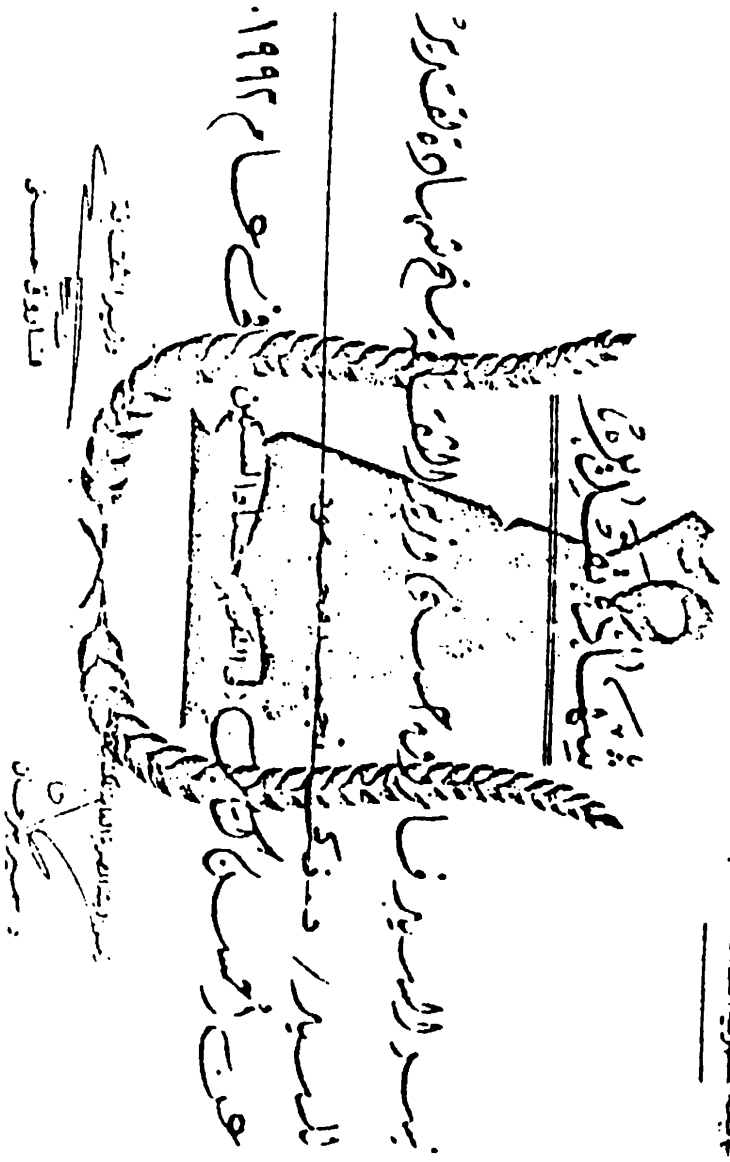
اتحاد كتاب وادباء الامارات
دائرة سلطان العويس الثقافية

تقديم لراثة محمود في جندسة الثقافة العربية، وتثبيت
لذرة اليب وزجج اوب او وعفري الامسة العربية مستم
رغن وكتاب ذابا، الامسة وتثبيت الامسة والغات
جانوة بسا و الامسة والثقافة لغاه واثم اوة ارك
الدكتور زكي نجيب محمود

وذكر لغزوني محمد الازلا سلك الانسانية والمستقبلية
بمارة سلطان العويس الثقافية للعام ١٩٩٠ - ١٩٩١
بن بهلى قزرفيت بزخمكيم زلفندوقي ١٣ / ١٤ / ١٩٩١

عبد القادر حسين
مدير ادارة الثقافة
سلطان العويس

وزارة المعارف
مكتبة مصر العامة المكتبات



إصدارات الصالون

- سلسلة كتاب الصالون
- هؤلاء المبدعون بين التكريم والبحث العلمى فى صالون أ.د. غازى زين عوض الله - الطبعة الأولى ٢٠٠٢م - الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ليالى الفكر العربى : إبداع وأبحاث وشهادات الرواد فى صالون أ.د. غازى زين عوض الله - الطبعة الأولى - ٢٠٠٣م - الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الكلمة وترسيخ الهوية فى صالون أ.د. غازى زين عوض الله - الطبعة الأولى - ٢٠٠٤م - الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- هؤلاء قالوا كلماتهم فى صالون أ.د. غازى زين عوض الله - الطبعة الأولى - ٢٠٠٥م - دار هارمونى للطباعة والنشر - القاهرة .

- مدار الأفكار فى صالون أ.د. غازى زين عوض الله - الطبعة الأولى - ٢٠٠٦م - دار الهانى للطباعة والنشر - القاهرة.
- روضة النبلاء فى صالون أ.د. غازى زين عوض الله - الطبعة الأولى - ٢٠٠٦م - دار الهانى للطباعة والنشر - القاهرة.
- واحة العباقرة فى صالون د. غازى زين عوض الله - الطبعة الأولى - ٢٠٠٧م - دار الهانى للطباعة والنشر - القاهرة.

- سلسلة المبدعين العرب:

- النجم فى مدار العشق - كيف نتذوق شعر فاروق جويده؟ - الطبعة الأولى - ٢٠٠٦م - مطبعة العمرانية - الجيزة.
- سمير سرحان - أمير فى مملكة الثقافة - عدد تذكارى - الطبعة الأولى - ٢٠٠٦م - دار الهانى للطباعة والنشر - القاهرة.
- جمال بدوى - الوجه الجمالى للشخصية العربية - الطبعة الأولى - ٢٠٠٧م - دار الهانى للطباعة والنشر - القاهرة.
- النجيب .. محفوظ فى القلب - عدد تذكارى - الطبعة الأولى - ٢٠٠٧م - دار الهانى للطباعة والنشر - القاهرة.

- هارون هاشم رشيد .. شاعر الغرباء .. بورترية للوطن وأبجدية للهوية - الطبعة الأولى - ٢٠٠٧م - دار الهانى للطباعة والنشر - القاهرة.

- الفنان صلاح طاهر .. ألوان فى فضاء الجمال - الطبعة الأولى - ٢٠٠٧م - دار الهانى للطباعة والنشر - القاهرة.

- رائد التنوير زكى نجيب محمود : ذكرياتى الفلسفية والأدبية مع المفكر والإنسان - الطبعة الأولى - ٢٠٠٧م - دار الهانى للطباعة والنشر - القاهرة.

- سلسلة كتاب المواهب :

- لا تدخل هذه القلعة - ديوان شعر - الطبعة الأولى - ٢٠٠٦م - دار الهانى للطباعة والنشر - القاهرة.

- Drops of Rain – Poetic Reflection Sarah Abu Zeid

سلسلة ترجمة الأدب العربى :

صدر منها بالفرنسية كتاب :

Arabesque Nouvelles Arabes

وصدر منها بالانجليزية:

**THE CONTEMPORARY
ARABIC SHORT FICTION**

- سلسلة المذكرات :
- الحب والحرب بين الذكرى والذاكرة .. شهادة أسير خلال ثورة التحرير مذكرات المناضل عبد القادر حجار.. الطبعة الأولى ٢٠٠٧م - دار الهانى للطباعة والنشر - القاهرة.

فهرست الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	- الإهداء
٥	- شكر وتقدير
٧	- على سبيل التقديم.. د. غازى زين عوض الله.
٩	- تصدير عام
٥٠-٢٢	الفصل الأول بزكى نجيب محمود... الإنسان كما عرفته.....
٩١-٥١	الفصل الثانى : صفحات من حياته الفكرية ونماذج من بعض آرائه التنويرية
	الفصل الثالث : نماذج من أفكار الرجل من خلال بعض مؤلفاته.....
٩٢	- عربى بين ثقافتين
١١١	- بذور وجذور
١٣٢	- حصاد السنين
١٥٩	بعض مراجع الكتاب
	- شهادات وخطابات وذكريات بين زكى نجيب محمود وعاطف العراقى.....
١٦٢
١٦٩	- إصدارات الصالون
١٧٣	- فهرست الكتاب.....

منتہی سورا الازربکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET